كتاب مجلة " كلمة حق " (١٣)
هدية العدد (٢٤) من مجلة " كلمة حق " يوليو - ٢٠١٩

ترجمة وتلخيص : عبد اللّه محمد

انهض واقتله أولاً

للصحفي الإسرائيلي: رونين بيرجمان

هذه السلسلة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ .

لو أفنى الإنسان عمره في قراءة ما تكتبه الأقلام لم يبلغ أن ينهي منها إلا قدراً ضئيلاً، فالعقول لا تتوقف عن الإنتاج والمطابع لا تتوقف عن الهدير، وفي عصرنا هذا كاد الناس كلهم أن يكونوا أصحاب أقلام ولهم كتابات، فما عليك إلا أن يكون لك حساب على موقع تواصل اجتماعي فيكون قد صار لك منبر عام تكتب فيه.

ومن بين الكثير من الغثِّ قليلٌ من السمين، فأودية العقول كثيرة ونتاج الفلاسفة كغابة ضخمة متشابكة.. فالعلم النافع بالنسبة لبحور الأفكار كالدرر واليواقيت في أعماق البحار.

والعلم الذي تحتاجه أمة مهزومة مستضعفة تريد أن تنهض ليس كالعلم الذي تحتاجه الأمم في حال رفاهيتها ورخائها.. فإن أمتنا أحوج إلى فهم الدين الصافي الواضح كما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم، وهي بحاجة إلى فهم الواقع المعاصر لتُحسِن إصلاحه بما لديها من الدين، وتحتاج إلى علوم النهوض وبناء الأمم أكثر من حاجتها إلى علوم الترف والزينة والزخارف. وفي طليعة علوم النهوض: فهم الدين والسياسة والتاريخ والعلوم الأمنية والعسكرية.. فالمكتوب في هذه الأبواب أولى بالعناية والاطلاع والدراسة من غيره.

وقد أنعم الله علينا في "مجلة كلمة حق " بفكرة أن نقدم مع كل عدد كتاباً كهدية، ونحن بين أن نستخرجه من كتاب مهم، أو أن يكون تلخيصاً لكتاب مهم، أو أن يكون ترجمة لتقرير مهم.. وهكذا، نختاره بحسب ما نقدِّر أهمية الاطلاع عليه.

ونرجو أن يعيننا القراء الكرام بترشيحاتهم ومجهوداتهم، فالباب مفتوح لكل مجهود..

نسأل الله أن يكون علما نافعا وعملا صالحا خالصا لوجهه الكريم

مجلة

كلمة حق

بالدم والنار

في عام 1896 نشر الصحفي النمساوي اليهودي ثيودور هرتزل كتابًا سماه ”الدولة اليهودية“، خلص فيه إلى أن معاداة السامية متجذرة في أوروبا، ولا يمكن لليهود أن يعيشوا فيها، والحل الوحيد لهم أن ينشئوا وطنًا قوميًّا خاصًّا لهم.

انتشرت هذه الفكرة بين يهود أوروبا الفقراء، إذ كان أغنياؤهم مستقرين وراضين بحالهم، وفي عام 1905 قامت الثورة الاشتراكية في روسيا ولكنها لم تنجح، وانتهت إلى أن قام القيصر ببعض الإصلاحات الشكلية، وطارد من شاركوا في الثورة بمن فيهم فقراء اليهود الروس الإشتراكيون، فهربوا إلى أماكن مختلفة في أنحاء العالم من ضمنها فلسطين.

في عام 1907 عقد أحد يهود فلسطين يدعى (بن زفي) اجتماعًا سريًّا مع اليهود الروس الهاربين من بطش القيصر، وقرروا في نهاية الاجتماع أن ينشئوا فرقة يهودية مقاتلة تقاتل لإقامة الدولة اليهودية، مستفيدين من خبرة اليهود الروس، وسموا هذه الفرقة Bar-Giora. في بداياتها كانت مهمة هذه الفرقة هي تنفيذ الاغتيالات وحماية المستوطنات اليهودية، لم تكن حركة شعبوية في بدايتها، ولكن مع وفود 35000 يهودي إلى أرض فلسطين ما بين عامي 5091–4191، تزايد عدد أفرادها، ومع حلول عام 2191 كانت هذه الفرقة موكلة بالدفاع عن أربعة عشر مستوطنة يهودية في فلسطين.

كانت هذه الفرقة تغتال أي شخصية تعادي الفكرة الصهيونية، بداية من العرب وانتهاء باليهود المعادين للصهيونية، مثل Jacob De Haan وهو يهودي من أصل هولندي كان مقيمًا في القدس، اغتالوه قبل يوم واحد من من سفره إلى لندن، حيث كان متوجهًا للاحتجاج على وعد بلفور عند الحكومة البريطانية.

ولم تتوقف عمليات الجماعات اليهودية عند العرب واليهود فحسب؛ بل اغتالوا شبكة استخباراتية يهودية أسستها المخابرات البريطانية للتجسس على الدولة العثمانية وأسمتها NILI.

تغير اسم الفرقة إلى هشومر في 1912 ثم الهاجانا في عام 1920، وكانت نواة للجيش الإسرائيلي لاحقًا، في هذا الوقت كانت تجري صراعات داخلية أساسها سياسة الاغتيالات؛ إذ كان جناح ديفيد بن غوريون - رئيس وزراء إسرائيل لاحقًا - يؤمن بأنه يجب اتباع سياسة

أكثر اعتدالًا، بينما كان اليمينيون يؤمنون بضرورة سفك دماء أكثر واتباع سياسة عمليات الاغتيال لأبعد حد، ونتج عن هذا الخلاف انشقاق مجموعات يمينية وتأسيس فرق مثل "ليهي" و"إرجون"، التي كان يرأسها في 1940 مناحم بيغن - رئيس وزراء إسرائيل لاحقًا - وواصلوا عمليات القتل المستهدف بسِرية، كان من ضمنها عمليات اغتيال لأعضاء الشرطة البريطانية.

في بدايات الحرب العالمية الثانية تطوع أكثر من 38000 يهودي من سكان فلسطين للقتال في صف الجيش البريطاني ضد النازية، وسمي هؤلاء المتطوعون بـ"الفرقة". عاين هؤلاء اليهود أحوال اليهود في ألمانيا والنمسا والحدود الإيطالية، وكونت معايشتهم لهذه الأوضاع رغبة في الانتقام، وتعهد بعضهم ألا يُضطهد اليهود بعد اليوم.

مع نهاية الحرب أمر قادة الهاجانا بعض أعضاء الفرقة بالبقاء في أوروبا وعدم الرجوع إلى فلسطين، وأوكلت إلى هؤلاء الباقين مهمة ملاحقة النازيين الفارين والانتقام منهم، وسموا بـ Gmul، وسلمت قيادتها لرجل اسمه مناحم غيتشون.

حصل مناحم غيتشون إثر مطاردته للنازيين الهاربين على وثائق للشرطة الألمانية لم تُتلف جيدًا في ثلاث مدن ألمانية ونمساوية هي Taraviso وVillach وKlagenfurt وكان الحصول على قوائم العملاء وأماكن إقامتهم أول الغيث، ثم حصل أن قبضوا على عميل نازي قديم هُدد بالتعذيب فصرح بمعلومات خطيرة عن الشخصيات لم تكن موجودة في الوثائق كذلك، وبناء على ما تراكم لديهم من معلومات لاحقوا الألمان النازيين، وكانت عادتهم استخراج المعلومات من كل شخص ثم قتله حتى لا يتكلم، وفي غضون ثلاثة أشهر قتل من200 إلى 200 شخص على أيديهم. ولم تُحل هذه الفرقة إلا لما أحست القيادة البريطانية بفقدان الكثير من النازيين الموضوعيين في قوائم المشتبه بهم.

كان الهاجانا الفاعل الحقيقي في أعمال اغتيالات الشخصيات البريطانية والعربية وأيضًا الألمان الذين كانوا يسكنون فلسطين بعد الحرب. ولكن هؤلاء الألمان هاجروا كلهم بعد ما اغتيل أحد كبارهم وهو Gotthilf Wagner، وكان الدافع لاغتياله هو دعمه للنازية أيام الحرب.

أما البريطانيون فقد اغتيل الكثير من كبرائهم وقادة شرطتهم الذين أزعجوا الجماعات

اليهودية السرية بالاعتقالات، أو عارضوا الفكرة الصهيونية، وكذلك اغتيل اللورد موين الذي كان وزير الدولة البريطاني في الشرق الأوسط؛ إذ وضع العراقيل ضد الهجرة اليهودية الجماعية لفلسطين في 1944. أما جماعات مثل إرجون فقد فجرت فندق الملك داوود، وهو مكان إقامة المندوب البريطاني وإدارته، وقيادة الجيش البريطاني في فلسطين وشرطته. شعرت القيادة اليهودية أن الدولة اليهودية لن تنعم بالاستقرار إلا إذا تأسست لديها أذرع استخباراتية في الداخل والخارج، ولهذا أسسوا لهم ثلاث شعب استخباراتية، الأولى وهي (الشاباك) أو الشين بيت وهي مخولة بالأمن الداخلي، والثانية هي (الموساد)، وهو مخول بالأمن الخارجي، والثالثة وهي (أمان) وهي وحدة الاستخبارات العسكرية.

في 1954 هرب ضابط بحرية إسرائيلي من البلد متوجهًا إلى روما بغية بيع أسرار عسكرية إلى السفارة المصرية في إيطاليا، ولكن عميلًا للموساد أبلغهم بالقضية، وهنا كان أول اختبار للموساد؛ إذ كان عليهم اختطاف العميل في باريس قبل وصوله لإيطاليا وإعادته قبل إتمام صفقته، ولكن العملية أسفرت عن كارثة بكل المقاييس؛ إذ تُوفي الضابط في الهواء إثر جرعات تخدير زائدة ورموا جثته من طائرة الاختطاف قبل هبوطها.

مكتب ترتيب اللقاءات مع الله

القيادة العليا كلها بضربة واحدة

كان هذا الحادث ما دفع رئيس الموساد في ذلك الوقت هاريل لإنشاء وحدة للموساد مختصة بالاغتيالات لا غير، وبالفعل أسس هاريل هذه الوحدة التي سميت بـ Mifratz في بداية الأمر، وضمت أعضاء الجماعات المتطرفة أمثال إرجون وليهي وجنود سابقين في الجيش الإسرائيلي، كذلك وسلمت قيادتها لضابط شاب اسمه آرييل شارون.

في هذا الوقت بدأت الاستخبارات العسكرية "أمان" تنفذ اغتيالاتها الخارجية، فاغتيل مصطفى حافظ الضابط في الجيش المصري في غزة، وصلاح مصطفى الملحق العسكري المصري في الأردن، كان هذان العسكريان يتحكمان بالفدائيين في فلسطين ووُكلت لهما مهمة تجنيدهم وإرسالهم وكل ما يتعلق بالفدائيين، وبما أن إسرائيل لم تستطع أن تتهم علنًا أيًّا من السلطة المصرية أو الأردنية فقد بدأت تعمل سرًّا بتجنيد العرب عن طريق المال أو النساء.

وما بين 1948-1956 جندت إسرائيل أكثر من 400 مخبر عربي في غزة كونوا مخزنًا للمعلومات، بناء عليها جندوا عملاء لاغتيال كل من الاثنين، ونجحت عمليتا الاغتيال اللتان نُفذتا بطردين يحويان متفجرات.

ولأن المصائب لا تأتي فرادى، فقد عثر الجيش الإسرائيلي بعد حرب 1956 في منزل مصطفى حافظ بغزة على وثائق تحوي كل أسماء وبيانات الفدائيين المتخفين في فلسطين، لم يكن قد أخذها الجيش المصري الهارب من غزة معه، وشكلت هذه الوثائق فتحًا استخباراتيًّا؛ إذ كشف الغطاء عن مئات الفدائيين، وبناء عليه بدأت اغتيالات الشاباك للفدائيين الفلسطينيين عن طريق عملاء عرب يهدون إليهم صناديق الهدايا التي تحتوي المتفجرات، أو الأطعمة المسمومة وما إلى ذلك، وفي النهاية تبين أن هذه الاغتيالات كانت ناجحة تكتيكيًّا ولكن ليست كذلك على المستوى الإستراتيجي، فقد كانت الاغتيالات تطال الفدائيين الميدانيين الذين يمكن استبدالهم بغيرهم وليس قادتهم.

بدأ صعود إسرائيل كقوة استخباراتية عام 1956 بعد الحرب، عندما عقد نيكيتا خروتشوف رئيس الاتحاد السوفيتي بعد ستالين كلمة سرية جدًّا، تحدث فيها عن جرائم خلفه جوزيف

ستالين، كان مثل هذا الأمر حساسًا ومحرجًا للقادة السوفييت، ولذا تكتموا على الكلمة إلى أقصى حد.

وصلت أنباء إلقاء مثل هذه الكلمة لمسامع CIA وجميع استخبارات العالم الغربي، ولكن لم يستطع أي منهم تجاوز جدار الاستخبارات السوفيتي الحديدي، وفي إحدى الأيام تلقت المخابرات الأمريكية الخطاب كاملًا عن طريق الموساد، مما أدى إلى اندهاش المخابرات الأمريكية وبعث الخطاب للرئيس الأمريكي مباشرة.

أما الموساد فقد بدأ ينفذ عملياته في البلاد التي ليست في حالة حرب مع إسرائيل رسميًّا، فاختطف ألمانيًّا نازيًّا سابقًا اسمه أدولف آيخمان في 1960 يقيم في الأرجنتين على وأحضره إلى إسرائيل وأُعدم فيها، وأعطت التسريبات الإعلامية بهذا الشأن الموساد نوعًا من الهيبة، كذلك حاولت الوحدة 8200 – وهي أكبر وأهم وحدة للاغتيالات في الاستخبارات العسكرية – تفجير طائرة وفد مصري يرأسه عبدالحكيم عامر بناء على معلومات تلقتها من عملاء عرب في الداخل. كان الوفد راجعًا من سوريا قبل يوم واحد من بدأ حرب 1956 ولكن عامر رئيس الوفد قرر في آخر لحظة أن ينتظر ويستقل الطائرة ثانية، وصعقوا بنبأ تفجر الطائرة الأولى التي كان يفترض أن يكون فيها الرئيس.

كأن السماء سقطت على رؤوسنا

في نهار يوليو 1962 صعقت إسرائيل كلها بإعلان جمال عبدالناصر عن تصنيع مصر وامتلاكها لصواريخ بعيدة المدى تستطيع أن تضرب بيروت وكل ما يقع في جنوبها، أصبح هذا الإعلان بمثابة التعبير عن فشل الموساد الاستخباراتي.

وكانت المصيبة الأخرى أن العلماء الذين صنعوا هذه الأسلحة كانوا علماء ألمانيين نازيين سابقين وعاطلين، جذبتهم أموال عبدالناصر.

أعلن إسير هاريل حالة طوارئ داخل الموساد، وأمر بتوجيه كل الجهود للحصول على معلومات عن البرنامج الصاروخي. وعلى الفور بدأ عملاء الموساد أولًا يتسللون إلى السفارات والقنصليات المصرية في أوروبا، ونجحوا في تجنيد عامل سويسري كان يعمل في Egypt-Air، وهي شركة طيران كانت واجهة للاستخبارات المصرية. كانت مهمة العامل هي السماح لعملاء الموساد بالمجيء ليلًا لأخذ كافة المعلومات المتعلقة بالبرنامج التي وجودها من

مخططات ووثائق وأسماء وعناوين، إلى منزل موساد آمن حيث سيصورون الأوراق ويأخذون النسخ، ثم يعيدونها في الليلة نفسها مرتين في الأسبوع.

كان الموساد يعلم أن البرنامج لا يمكن أن ينجح بدون العلماء، ولذا فإن اختطاف أو اغتيال العلماء يعني نهاية البرنامج، وكانت المعلومات المتوفرة كافية للتخطيط لاغتيال العلماء الألمان. لكن محاولات اغتيال العلماء الألمان - وخاصة كبارهم - لم تنجح في البداية أحيانًا لعدم جاهزية الأسلحة وأحيانًا أخرى للصدفة. ومع محاولات الاغتيالات المتعددة جندت المخابرات المصرية خبيرًا أمنيًّا ألمانيًّا نازيًّا اسمه أدولف فالنتاين، والذي بدوره أرشد العلماء إلى الخطوات الأمنية الصحيحة، بداية بإعطائهم المسدسات وتعليمهم استخدامها، وانتهاء بإرشادهم إلى كل شيء في حياتهم اليومية.

كان الموساد في حاجة ماسة إلى التعامل مع فالنتين فقد أسهمت إرشاداته الأمنية في الزيادة من صعوبة الفتك بالعلماء، وفي نفس الوقت كان عملاؤهم يزيدون من جهدهم في جمع المعلومات والصور في كل سفارات مصر في أوروبا.

تمكن الموساد في هذه الفترة من التواصل مع الضابط أوتو سكورزيني في مدريد، وكان سكورزيني ضابطًا ألمانيًّا رفيعًا في المخابرات الألمانية النازية، وكان كبير مخططي عمليات الجيش النازي في الحرب، اشتهر بإنقاذه للرئيس الإيطالي موسيليني من الاختطاف أثناء الحرب العالمية الثانية. تواصل الموساد مع هذا الضابط واتفق معه على أن يتواصل مع فالنتين ويقنعه بترك البرنامج المصري للصواريخ مقابل أن يمسح الموساد -بما لديهم من اتصالات- اسم سكورزيني من قائمة العملاء النازيين المطاردين حول العالم.

تواصل سكورزيني مع فالنتاين ووعده بأحلام جميلة، فأوهمه بأنه يعمل سرًّا على إقامة الرايخ الرابع، وأنه يجب أن يمده بكل المعلومات حول برنامج صواريخ مصر، وبما أن سكورزيني كان أعلى مرتبة من فالنتاين في العهد النازي فإن فالنتاين امتثل للأمر. وعُطّل البرنامج الصاروخي كليًّا بعد ما أقنع سكورزيني العلماء الألمان شخصيًّا -الذين لم يرحلوا إلى مصر بعد- أن يبقوا في ألمانيا ليؤسسوا لإعادة أمجاد ألمانيا، وتلقى العلماء الألمان المقيمون في مصر والذين اكتشفت هوياتهم وعناوينهم تهديدات أجبرتهم على الرحيل من مصر خوفًا على حياتهم.

كانت هذه أول مرة يوجه فيها الموساد كامل قدراته وعتاده إلى مهمة واحدة انتهت بالنجاح، وبعدها مباشرة تأسست وحدة في الموساد تسمى Caesarea، كانت خليطًا من أعضاء الوحدة 881 من الاستخبارات العسكرية ذات الخبرة، ووحدة Mifratz المختصة بالاغتيالات، كانت مهمة Caesarea هي جمع المعلومات المتعلقة بالاغتيالات من الدول الخارجية سواء من السفارات أو من غيرها.

سلسلة من الكوارث

شهد منتصف الستينات كوارث للموساد بكل المقاييس، فقد اكتُشفت حقيقة العميل إيلي كوهين، الذي وصل لمنصب مستشار وزير الدفاع في سوريا، والعميل وولفغانغ لوتز الذي اكتسب مكانة رفيعة في مصر، الأول أُعدم والثاني حُكم عليه بالمؤبد ثم سلم لإسرائيل في عملية تبادل أسرى لاحقًا.

أما الكارثة الثالثة فهي أزمة أوشكت أن تقع بين الموساد والمخابرات الفرنسية بخصوص المعارض المغربي مهدي بن بركة. في القمة العربية في 1965 في الدار البيضاء أجرى المغرب صفقة مع الموساد والشين بيت بأن تسجل المخابرات المغربية كل الحوارات والنقاشات بين الرؤساء العرب في القمة، ويكون للموساد مقر في المغرب وأن يسهل الملك هجرة اليهود المغاربة إلى إسرائيل مقابل أن يساعد الموساد ملك المغرب بالتقنية والمعلومات الاستخباراتية اللازمة ليتجسس على معارضيه ويساعد على تصفيتهم.

وبالفعل حدث في سبتمبر 1965 أن ساعد الموساد في عملية الاختطاف ووفر للمغربيين الملاذ الآمن للتحقيق مع بن بركة وتكفلوا بالتعامل مع الجثة. هرب كل المتورطين من فرنسا بسرعة ولاحقًا اكتشفت السلطات الفرنسية الأمر وحوكمت شخصيات مغربية غيابيًّا وأثيرت الشكوك حول تعاون الموساد وظلوا دومًا خائفين من أن يُحاكم أعضاؤهم يومًا كذلك.

كل هذه الأخطاء الكارثية أدخلت الموساد وخاصة فرقة Caesarea في حالة من الغموض والتشوش وعدم اتضاح الرؤية. هنا أتى للواجهة رجل اسمه مايك هراري، عُين نائبًا للرئيس في 1965 ثم رئيسًا للفرقة في 1970، ونقل فرقة الاغتيالات نقلة نوعية من مجرد كونهم جنودًا سابقين لا توجد لديهم عقيدة قتالية أو رؤية متبلورة. كانت بداية هذه النقلة عندما عُين على رأس لجنة لتقييم واكتشاف الخلل في فرقة الاغتيالات، وكان أول أعماله أن

أوقف عمل الفرقة كلها ثم اكتشف أن إحدى أكبر ثغرات الفرقة هي انعدام التدريب، عند التخطيط لعملية اغتيال، لا يُعد التخطيط مكتملًا ما لم تتوفر خطط هرب المنفذين من ساحة الاغتيال، وكانت هذه بالذات مشكلة إذ إن أعضاء الفرقة لم يتدربوا أساسًا على أساليب الهرب بعد تنفيذ العمليات.

تمثلت تغييرات هراري في التدريب على الهرب، إلغاء فكرة الاغتيال بالسكين أو أي قتال بالأيدي لتأمين الهرب الآمن للعميل وعدم وقوعه في الأسر، ثم التدريب على إخفاء الهوية تمامًا، إذ يكتب العملاء سيرًا ذاتية مختلفة تمامًا يحفظونها حتى لا يثيروا أية شكوك عند من سيكونون بينهم، ثم يتعلمون إحدى اللغات الأجنبية - خاصة الأوروبية إذ فضل هراري الاعتماد على ذوي مظهر أوروبي بعد افتضاح خطة العملاء العرب في الدول العربية - إلى أن يتقنوها، ثم يختارون مهنة تتطلب منهم التنقل وتكون غطاء لسفرهم لعمليات الاغتيال. لكن أكبر نقلة حصلت في عهد هراري هي الصرامة، تطلب الأمر مميزات كثيرة حتى ينضم الشخص إلى فرق الاغتيالات في الموساد، فيجب أن يعرف الموساد أنه من أصل يهودي، ثم يعرف ما الدافع الذي يدفع العميل لقبول هذا العمل الخطير للغاية، يتفقد الموساد تاريخه والتأكد من أنه ليس عميلًا لدولة أخرى، ثم تكون التدريبات الشاقة جدًّا والتي لا يصمد لها الكثير، كان الإسرائيليون المولودون في أوروبا لهم فرص أكبر في القبول؛ إذ إنهم لن يحتاجوا للتدريب على تمثيل دور الأوروبي غير الإسرائيلي.

وبعد كل هذا يكون الاختبار الأخير، يجب أن يذهب المجند لقريته أو حارته في إسرائيل فيمر عليها ويدخلها ويخرج منها دون أن يعرفه أحد، فإذا عرفه أحد أقاربه أو أصدقائه فهذا فشل في الامتحان الأخير، هذا الامتحان الأخير بالذات انضوى على إجراء آخر، كان الموساد يعطي معلومات للشين بيت عن المتدرب فيذهب ضباط الشين بيت للقبض على العميل أثناء وجوده بقريته ثم يأخذونه إلى غرف تحقيق مغلقة متهمينه بأنه عميل فلسطيني، فيستجوبونه ويعذبونه، فإذا ضعف المجند وأخبرهم بأنه متدرب في الموساد فهذا كفيل بفشله كذلك.

مع كل هذه الإجراءات، تقلصت نسب القبول في فرق الاغتيالات حسب تصريحات بعض مسؤوليها إلى 0.01%. وبالطبع لم يفُت هراري أن يسمي الفرقة الوليدة باسم خاص، فسماها كيدون Kidon، وصارت رسميًا فرع الاغتيال لجناح Caesarea المختص بالمعلومات.

"الكفاح المسلح هو الحل الوحيد لتحرير فلسطين"

مع أول انتصار لليهود في حروبهم في 1948، هُجّر ما بين 600,000 إلى 750,000 ألف فلسطيني من أرضهم، بعضهم هُجّر من مسكنه إلى الضفة الغربية أو قطاع غزة - اللذين سيطرت عليهما إسرائيل بعد حرب 1967 - وبعضهم هُجر من فلسطين كلها. مع إعلان الدولة اليهودية بدأت موجة عمليات ضد المدنيين والعسكريين الإسرائيليين كان يقوم بها الفدائيون الذين كانوا يرسَلون بعلم وتحكم المخابرات المصرية غالبًا. بعد حرب 1956 واجتياح الجيش الإسرائيلي لغزة والسيطرة عليها بالكامل، توقفت مصر عن دعم أي نوع من المقاومة، لخوفها على أمنها القومي وسلامة حدودها، ولكن لم تنعم إسرائيل بالهدوء إذ إن الهجمات لم تتوقف على الإطلاق.

في عام 1959 أعلن الفلسطينيان ياسر عرفات وخليل الوزير "أبو جهاد" عن تأسيس حركة التحرير الفلسطينية. لم يكن الإعلان عن تأسيس الحركة عفويًا بل كان نتيجة جهود عرفات وأبو جهاد لسنين؛ إذ إنهما كانا في بداياتهما من عملاء المخابرات المصرية، وشعرا بأن عبد الناصر خانهما بعد رفع يده عن فلسطين عام 1956. وبناء على خبرتهما السابقة في عمليات التخريب وحرب العصابات أسسا حركة خططا لتكون الممثلة الشرعية والوحيدة للشعب الفلسطيني. ولم تشعر أجهزة الأمن الإسرائيلية بخطر هذه الحركة في البداية إذ كان جمال عبدالناصر هو الخطر الأول على إسرائيل الذي تتوجه إلى محاربته الجهود، خاصة مع برنامج العلماء الألمان.

كان أول تقرير رفعه عميل في الموساد إلى رئيسه في 1964 حيث أحس الموساد بأن الحركة تتحرك شعبيًا بين الطلبة والمثقفين الفلسطينيين في جامعات أوروبا وأن هذا التحرك سيشكل خطرًا في المستقبل، لكن الحركة قامت بتنفيذ أول عملية لها مطلع عام 1965 وتزايدت هجماتها داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة منذ ذلك الحين، أما الموساد فقد حاول عدة مرات أن يغتال ياسر عرفات وغيره من قيادات الحركة الذين تنقلوا بين الأردن ولبنان وسوريا، بناء على معلومات وصلتهم من عملاء لهم داخل الحركة، كادوا يغتالون عرفات مرتين ولكنه هرب في كلتا المرتين من مسرح الأحداث لابسًا حجاب النساء. أظهرت التجارب أن نوعية الهجمات وجودتها ودقتها كانت تتحسن كلما ازدادت العمليات ضد الإسرائيليين.

مير داغان وخبرته

مع نهاية حرب 1967 واتساع نطاق سيطرة إسرائيل وتوسعها في طرد الفلسطينيين من البيوت وبنائها المستوطنات، حدث ردات فعل عنيفة من قبل الفدائيين الفلسطينيين وعمليات سُميت بالدموية، وبفعل هذه الأحداث فُتح باب النقاش داخل القيادة الإسرائيلية في كيفية التعامل الأمثل مع مثل هذه الأوضاع، فقد رأى بعضهم أنه يجب التعامل مع الأمر برفق وإيقاف مشاريع الاستيطان لمدة، بينما رأى آخرون أنه يجب الضرب بيد من حديد.

كان من ضمن الفريق الأخير آرييل شارون والذي سيُعين كقائد للجيش الإسرائيلي في 1969 في المناطق الجنوبية التي من ضمنها غزة معقل المقاومة والعمليات الجهادية آنذاك. أسس شارون فرقة في الجيش ترفع التقارير إليه مباشرة على رأسها مير داغان – أحد جنود حرب الأيام الستة الذين التقاهم وأعجب شارون بشجاعته وفطنته – وكلفه باختيار وجمع 150 جنديًا أكفاء للمهمة التي سيكلفون بها، ثم إعطائهم تدريبات إضافية شاقة.

هنا استفاد شارون من حاجة الشاباك (الشين بيت) إلى قوة استخباراتية للمساعدة في تحديد ومراقبة واغتيال الفلسطينيين المشكوك في أمرهم، أو الذين ثبت تورطهم في عمليات ضد الجيش الإسرائيلي؛ فقد تسلم داغان من الشين بيت قائمة بأسماء رجال مطلوبين في غزة يصل عددهم إلى 400 اسم.

قسمت هذه الأسماء إلى القائمة السوداء والقائمة الحمراء. أما القائمة السوداء فتحوي أسماء الأكثرية التي لا تعلم بأنها مطاردة أو مراقبة وبالتالي يسهل اختطافها، كانوا يُختطفون هؤلاء ثم يعذبونهم حتى يستسلموا ويضطروا للكشف عن أسماء من يعرفونهم، ثم يوضع هؤلاء في سيارة أجرة بين رجلين ضخمين ويجبرون على الإشارة لبيوت الأعضاء الذين يعرفونهم تحت تهديد السلاح.

أما "الحمراء" فقد كانت قائمة الأسماء الخطرة التي تتربع على قمة هرم حركة فتح، وقد أسست لهم فرقة خاصة "الكوميليون" وأعطيت لهم تدريبات خاصة على المراقبة عن قرب والاختطاف أو الاغتيال، نظرًا لأن هؤلاء يعلمون أنهم مطاردون وبالتالي هم حذرون ومسلحون.

من بعد 1970 بدأت هذا الفرقة بيد شارون عملها، فقلصت في خلال عامين المطلوبين

في قطاع غزة إلى 8 فقط بعامل التصفية الجسدية. استفاد الإسرائيليون من طريقة التقسيم الفلسطينية إذ إن منظمة التحرير الفلسطينية كانت يسارية وعلى خطى غيرها من اليساريين تؤمن بعقيدة "الحد الأدنى من المعلومات" بالنسبة للأعضاء؛ إذ العضو لا يجب أن يعرف إلا الذين هم في خليته وبمجرد أن يحمل غريب السلاح ويتكلم العربية يستغفل الأعضاء ولا يدركون أن هذا عميل للاحتلال إلى بعد فوات الأوان.

أحد الأسباب التي سرعت وتيرة هذا الاغتيالات هي حادثة قتل مستوطن وبعض أفراد عائلته في 1971، إذ إن هذه الحادثة بالذات وحدت الرأي الاستخباراتي الإسرائيلي المنقسم حول طريقة التعامل مع الفلسطينيين بين القسوة المفرطة أو مبدأ الشدة واللين، وتعاون بعض الفلسطينيين مع الاحتلال الإسرائيلي؛ فمثلًا كان بعض العملاء يبيعون أعضاء المنظمة قنابل تتفجر بعد ثانية من سحب الزناد، على خلاف العادة ولأن القضاء الإسرائيلي يلزم بالكشف عن أسماء جميع المشاركين في العمليات فإنهم كانوا ينفذون الاغتيالات سرًّا، وحتى من استسلم فإنه يُغتال.

كان الإسرائيليون لا يتورعون عن قتل من يتهمونه بأنه إرهابي، فكان من طرقهم أن يتركون الباب مفتوحًا للسجين فيهرب، أو يتركون رصاصة في الزنزانة أو الغرفة التي يعتقل فيها ثم يقتلونه بتهمة الهرب أو حيازة سلاح، أو أن يخبرونهم بأن لديهم دقيقتين للهرب ثم عندما يهرب السجين يطلقون النار على "الهارب".

كانت هذه الاغتيالات محل ثناء من المؤسسات المدنية الإسرائيلية لأنه "حفاظ على حياة المواطن الإسرائيلي"، وسهلت بناء مستوطنات جديدة في أراضي 76 التي كان اليهود المتدينون يرون أنه لا يجوز التفريط في شبر منها؛ لأن عدم توسيع أرض إسرائيل سيؤخر خروج المخلص "المشياخ" وخسارة هذه الأراضي ستعد خسارة إستراتيجية أيضًا.

منظمة التحرير تصبح منظمة عالمية

في ظل هذه الأوضاع تأسست في عام 1967 الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (PLFP) على يد مجموعة من الفلسطينيين الماركسيين على رأسهم جورج حباش ووديع الحداد، تحت غطاء منظمة التحرير الفلسطينية، فصارت ثاني أكبر فصيل بعد فتح.

قامت هذه الجبهة بعد تأسيسها بعدة عمليات لاختطاف طائرات تحمل ركابًا إسرائيليين،

من أبرزها عملية في 1968 حدث بموجبها تبادل الأسرى الإسرائيليين بأسرى فلسطينيين، وأخرى في سبتمبر 0791 بادلوا فيها الرهائن الإسرائيليين بجنود سوريين.

في ذروة نشاطها، اختطفت الجبهة في نفس الشهر - سبتمبر من عام 1970 - أربعة طائرات أقلت ركابًا إسرائيليين، وأنزلوها كلها في الأردن واحتجزوا 55 إسرائيليًا، بينما لم يهتموا بغير الإسرائيليين من الركاب وأطلقوا سراحهم. وطالبوا بمبادلة الإسرائيليين بأسرى فلسطينيين من بينهم ليلى خالد - عضوة في الجبهة ومشاركة في عمليات اختطاف سابقة - مما أغضب ملك الأردن الذي رأى أن الأوضاع في مملكته تخرج عن يده فأطلق يد أجهزته الأمنية لقتل آلاف الفلسطينيين المهاجرين إلى الأردن، وبعد هذه الأحداث أجبرت فتح على الانتقال للبنان وسُمي هذا الشهر سبتمبر الأسود.

"ليس لدي مشكلة في أي شخص قتلته"

في نفس عام 1970، صار مايك هراري على رأس فرقة Caesarea بعد أن استمر في تدريبه للفرقة لخمس سنين، كان قد اقتنع خلالها أنه يجب على الموساد أن ينفذ عمليات اغتيال في أوروبا، كون القيادات الفلسطينية في العواصم العربية محصنة. ولكن جولدا مائير رئيسة الوزراء الجديدة رفضت الأمر رفضًا باتًّا معللة موقفها بأن الدول الأوروبية لن تسمح باغتيالات على أراضيها، وستسوء العلاقة بين هذه الدول وبين إسرائيل.

تغير موقف جولدا مائير تغيرًا كليًا بعد ما يًسمى بمذبحة ميونخ، وهي حادثة اختطاف وقتل لاعبين إسرائيليين أثناء حضورهم فعاليات الألعاب الأولومبية في ألمانيا، وقُتل بعض من شرطة ألمانيا الغربية كذلك، قام بالعملية حركة ست نفسها "سبتمبر الأسود"، اتضح فيما بعد أنها إحدى أذرع منظمة التحرير الفلسطينية لا أكثر. اعتقدت إسرائيل أن ألمانيا الغربية لم تقدم المساعدة الكافية لإنقاذ الرهائن الإسرائيليين، واتُخذ قرار داخلي إسرائيلي بأن يُفتح الباب لتنفيذ عمليات الاغتيال في أوروبا.

تلقى الموساد معلومات قيمة من عميل مسيحي لبناني مخلص لهم - أعطوه الاسم الحركي "الحزن" - مصورًا لهم مساكن ثلاثة من قيادات منظمة التحرير في بيروت بالعنوان في أكتوبر 1972، بعد مدة وجيزة قرر الموساد القيام بعملية جنونية بإرسال فرقة الاغتيالات للبنان واغتيال هؤلاء الثلاثة المقيمين في بيروت.

أولى المشاكل التي واجهتهم كانت أن أعضاء كيدون - فرقة الاغتيالات في جناح Cae-serea - لم يملكوا غطاء مقنعًا لدخولهم للبنان والبقاء فيها لمدة، ولأن غالب أعضاء فرقة جمع المعلومات Caesarea في لبنان غير متدربين بما يكفي تقرر الاشتراك مع استخبارات الجيش آمان في تنفيذ هذه المهمة. استغل الجنود المرسلون للاغتيال سكن الأهداف في الساحل، فقد نزل الـ Sayaret Maktal – وحدة الاغتيالات في استخبارات الجيش – في الساحل في ليلة 10 أبريل 1973 وبتعاون مع عناصر الـCaesarea الموجودين داخل لبنان وصلوا لغرف المستهدفين ونفذوا العملية بنجاح، فحدثت الاغتيالات وفجروا مبنى الجبهة الشعبية بتحرير فلسطين في بيروت بمن فيه، وخرج الإسرائيليون من لبنان في نفس الليلة سالمين.

إثر هذه العملية التي سميت فردان "ربيع الشباب" استقالت الحكومة اللبنانية، أما على الصعيد الفلسطيني فقد تمت تصفية أعضاء المنظمة داخل فلسطين الذين عرفوا أو افتضح أمرهم جراء حيازة الإسرائيليين وثائق كمال عدوان – أحد الثلاثة الذين اغتيلوا – من غرفته وبدأت أسطورة الموساد الذي يصل لأي مكان في العالم العربي.

"التعريف الخاطئ للهدف ليس فشلًا، إنه خطأ"

استمرت في هذه الأثناء اغتيالات الموساد للفلسطينيين المنتمين لفتح أو جبهة التحرير الشعبية في أوروبا الغربية بالعشرات. كانوا يطاردون في بداية السبعينات أحد أعضاء منظمة سبتمبر الأسود وهو علي حسن سلامة، ابن المقاتل حسن سلامة ثاني قادة الجيش الفلسطيني في حرب 48.

كان علي سلامة على رأس قائمة المشكوكين بضلوعهم في عمليات ضد إسرائيل، كان كلما اقتربوا من الوصول إليه وجدوه قد فر لدولة أوروبية أخرى. في 1973، كان هنالك مخطط لاغتياله في النرويج ولكن بسبب خطأ في تعريف الهدف اغتالوا مغربيًا عاش في النرويج وشابه لحد كبير علي سلامة، ووقعت الواقعة بخطئ فظيع لعميل الموساد السائق إذ لم يتخلص من السيارة التي ركبوها بعد إطلاق الرصاص، وكتبت رقم السيارة إحدى المارات وسلمتها للشرطة فقبضت عليه الشرطة النرويجية في المطار – واكتشفوا أنه مصاب برهاب الاحتجاز – وانتزعت منه كل معلومة عرفها عن الموساد حتى رقم هاتف

مقر الموساد في تل أبيب.

بهذه المعلومات ألقي القبض على خمسة عملاء آخرين شاركوا في عملية الاغتيال وساعدت هذه المعلومات على القبض على أعضاء موساد في دول أوروبية أخرى كفرنسا وإيطاليا، وصارت القضية فضيحة دولية إذ إنها كانت أول مرة يُلقى القبض فيها على المنفذين ويعترفون ويحاكمون، هذا الحدث جعل الموساد يتوخى الحذر في عملياته القادمة ويفضل التعاون مع الشرطات المحلية الأوروبية في بعض الأحيان، أما العملاء المقبوض عليهم فقد حُكم عليهم بأحكام كان أقساها خمس سنوات، ولكن أعيدوا كلهم إلى إسرائيل في 1975 وعرفت هذه القضية بقضية ليلهامر.

غطرسة

كان وديع الحداد - ثاني شخصية في المرتبة في PLFP - قد اختلف وقائده جورج حباش حول الإستراتيجية التي يجب اتباعها في العمليات، مع بدء المفاوضات بين فتح والجانب الإسرائيلي بوساطة الأمريكان والـCIA كان هنالك اتفاق بين الأمريكان وياسر عرفات بألا يقوموا بالعمليات خارج فلسطين، امتثل عرفات وطلب من جورج حباش أن يتبع نفس الخطى لتسهيل المفاوضات تقديمًا لمصلحة الشعب الفلسطيني، فوافق حباش ورفض وديع الحداد وقرر أن يكمل تنفيذ العمليات خارج فلسطين، من خطف للطائرات الإسرائيلية وغيره.

كانت لديه مهمة أراد أن يقوم بها منذ زمن ولكن لم تكن لديه الإمكانيات. في 1975 سنحت له فرصة تجنيد ألمان يساريين من ألمانيا الغربية - كان يأتيه تمويل ودعم بالسلاح من المخابرات السوفيتية وألمانيا الشرقية - كان بعضهم قد خرج لتوه من السجن. أخذهم حداد وسافر بهم لليمن وتلقوا تدريبات هناك. كانت العملية ببساطة تفجير طائرة إسرائيلية تأتي من جنوب أفريقيا مرورًا بنيروبي كينيا.

احتاج لأناس ذوي مظهر غربي ليدخلوا إلى المطار بدون أن يثيروا أية شكوك. تسربت معلومات العملية من جانب العميل اللبناني "الحزن" - وكان قد اخترق الجبهة - بكامل تفاصيلها، فأرسلت إسرائيل لكينيا ما لديها من معلومات وبمساعدة القوات الكينية ألقي القبض على الخمسة وتكتم الطرفان - إسرائيل وكينيا - على الأمر لأسباب سياسية، ونُقلوا

بطائرة لإسرائيل.

وبينما يتناقش مجلس أمني رفيع المستوى بقيادة رئيس وزراء إسرائيل تلقوا خبر اختطاف طائرة إسرائيلية أخرى قادمة من باريس، وحُوّلت وجهتها إلى أوغندا، وطالب المختطفون بالإفراج عن أكثر من خمسين معتقلًا من بينهم الخمسة المعتقلون حديثًا. أراد بعض الإسرائيليين أن يتفاوضوا مع الفلسطينيين والألمانيين المختطفين ولكن قوبل طلبهم بالرفض، إلا أن الموساد حصل على صور للمطار الذين حدده المختطفون من عميل Caesarea كان دُرّب ليكون طيارًا يومًا ما. أغار الإسرائيليون على المطار بمساعدة القوات الأوغندية ليلًا وقضوا على المقاومين جميعًا، ولكن لم يجدوا وديع الحداد الذي أرادوا اغتياله بأي ثمن.

موت في المعجون

كان الحداد يقضي معظم وقته في عاصمة عربية، إما بغداد أو بيروت، مما يجعل اغتياله صعبًا، والهروب بعد الاغتيال صعبًا كذلك. هنا جاءت فكرة أن يقتلوه عن طريق السم. صنعوا سمًّا في معهد الأبحاث البيولوجية في تل أبيب - وهو مؤسسة تُصنع فيها سموم الاغتيالات التي يستخدمها الموساد حتى يومنا هذا.

صنعوا سمًّا قاتلًا، وحقنوه في معجون أسنان، وكلفوا عميلهم "الحزن" الذي كان قريبًا جدًّا من الحداد بأن يذهب لمنزله في بغداد ويستبدل المسموم بمعجون أسنانه الأصلي على حين غرة، وفي 10 يناير 1978 نفذ لهم العميل خطتهم التي أرادوا. مرض الحداد بعدها بفترة قصيرة ونُقل لبرلين الشرقية حيث لم يستطع الأطباء علاجه ومات.

تزامن اغتيال الحداد مع شطب اسم عرفات من قائمة الاغتيالات لكونه اشتهر بعد خطابه أمام الأمم المتحدة بأنه الرجل الداعي للحل السياسي، وهنا جاء الدور على (علي سلامة). أخبر هراري القيادة بأنه يجب اغتيال سلامة بدون تأخير، لأنهم اعتقدوا أنه في مجموعة سبتمبر الأسود ولأنه قائد الحرس الشخصي لياسر عرفات. اعترض مدير القسم المختص بالموساد بالتواصل مع الاستخبارات الأخرى؛ لأن الـCIA لمحت إلى أن سلامة عميل لهم ويجب على الموساد توخي الحذر.

طبقًا لـ Kai Bird صاحب كتاب Good Spy وهو كتاب سيرة ذاتية لـRobert Ames عميل لـCIA

في الشرق الأوسط؛ فإن سلامة كان بالفعل عميلًا للأمريكان لدرجة أنه عندما تزوج استضافوه في ميامي لقضاء شهر العسل بشواطئها تحت حماية المخابرات الأمريكية نفسها، وفي منتصف السبعينات أصبح سلامة قناة التواصل الرسمية بين عرفات والـCIA، ولكن الموساد أبَى إلا أن يغتاله حتى يرسل رسالة للأمريكان كذلك مفادها أننا لن نرضى بطعنة في الظهر.

كانت الـCIA قد حذرت سلامة مرارًا وتكرارًا أن الموساد سيغتاله وأن عليه أخذ الحيطة، كانت كل تصرفاته أقرب إلى الاستعراضية، كأنما يقول للعالم "أنا هنا"، بدءًا من قيادته الجنونية للسيارة التي تجلب الأنظار، وزواجه من ملكة جمال لبنان جورجينا رزق، مرورًا بالعديد من الأخطاء والثغرات الأمنية الواضحة. جمع الموساد المعلومات الكافية من عنوان وروتين علي سلامة اليومي وغير ذلك، بمساعدة عميل لبناني شيعي وتاجر مخدرات ذي شبكة علاقات واسعة اسمه أمين الحاج.

نفذ الموساد في مطلع 1979عملية اغتيال لسلامة بتفجير سيارته عن بُعد باستخدام لغم، في عملية اغتيال هي الأولى من نوعها للموساد، طوّر تقنيتها عالِم في الموساد عمل سابقًا في مؤسسة NASA الفضائية. أما صديق سلامة في المخابرات الأمريكية Robert Ames فقد كان ممن أسهموا في اعتراف ريغن لأول مرة بمنظمة التحرير الفلسطينية وحق شعب فلسطين أن تكون له دولة.

حزمة من الكلاب المتوحشة

مع بدء الحرب الأهلية في لبنان في 1975 تحولت البلد إلى مسرح لتصفية الحسابات، وسهلت وصول العرب لشواطئ الأراضي المحتلة والعكس. استمرت عمليات (فتح) وردود الجيش الإسرائيلي وجرائمه مع المعتقلين، واتخذ الإسرائيليون من الكتائب المارونية المسيحية المتوحشة حليفًا؛ إذ إن هذه الكتائب كانت تنظر للفلسطينيين على أنهم عدو - تمامًا كما ينظر العرب للصهاينة - وكانت إسرائيل تريد بذلك أن تضع قدمًا لها في لبنان. قررت القيادة الشمالية في الجيش الإسرائيلي أن تتعاون مع هذه الكتائب المسيحية والجماعات الشيعية؛ لنشر الرعب بين الفلسطينيين والسوريين خاصة في مخيمات اللاجئين؛ فقاموا بعمليات تفجير كثيرة باستخدام السيارات أو الحمير، أو عن طريق وضع قنبلة أمام منزل الهدف، وحرصوا على أن يستخدموا قنابل تنفجر على نطاق واسع بشكل لا يترك

الإنفجار معه أثرًا لبصمات لإسرائيل في العملية.

كانت هذه العمليات تُنفذ بواسطة كتيبة SLR التي أسسها الجيش الإسرائيلي خصيصًا لهذا الغرض وسُلمّت لمير داغان من قِبل رفائيل ايتان رئيس هيئة الأركان.

مع تسليم مناحم بيغن وزارة الدفاع لأرييل شارون، تكاثرت هذه الموجة من الدماء التي أرادت استفزاز عرفات لينقض الهدنة التي عُقدت برعاية الأمم المتحدة، وظهرت على الساحة جبهة تحرير لبنان من الأجانب، وهي واجهة لجيش الدفاع الإسرائيلي. ثم في 1981 أُعيد عرفات لقائمة المطلوبين للاغتيال من جديد، فحاولت وحدة SLR اغتياله مرتين، مرة في استاد في لبنان أثناء حضوره إحدى المناسبات، ومرة أخرى في طريقه إلى سوريا التي كان يذهب إليها شهريًا مع قادة فتح، ولكن الحذر الزائد أجبرهم على إجهاض العمليتين لتخوفهم من وجود السفير السوفيتي في المنصة المراد تفجيرها في المرة الأولى، ولتشككهم في شرطي رآهم يحفرون حفرة اللغم في المرة الثانية التي لو نفذوها لسلموا من صداع رأس الحرب في 1982.

أبو نضال، أبو شميدال

في يونيو عام 1982 حاولت جماعة فلسطينية تُسمى جماعة أبو نضال - تُحرك بأيدي عراقية - اغتيال السفير الإسرائيلي في إنجلترا. جاءت أوامر الاغتيال للجماعة - التي كانت تعادي ياسر عرفات - من بغداد، خاصة من برزان التكريتي رئيس المخابرات العراقية آنذاك. كان صدام حسين يريد أن يورط أعداءه الثلاثة - سوريا وفتح وإسرائيل وربما حتى إيران - في حرب يكون هو فيها الرابح الوحيد.

رغم أن الاستخبارات الإسرائيلية أمان والموساد حذروا رئيس الوزراء بيغن مرارًا أن من حاول اغتيال السفير ليس عرفات وإنما صدام.. لم يأخذ بنصيحتهم، وقرر الذهاب للحرب وتحقق لشارون ما أراد من غزو لبنان.

كانت استراتيجية شارون أن يسيطر الجيش الإسرائيلي على العاصمة بيروت وينصّب جمايل - قائد الكتائب المارونية - رئيسًا ليُهجّر هو بدوره الفلسطينيين الذين سيصبحون أغلبية في الأردن ويشكلون دولة هناك وينسون أحلامهم بالعودة لفلسطين إلى الأبد.

كذب شارون على مجلس الوزراء المصغر والقادة، ووعدهم بألا يتجاوز الاحتلال الإسرائيلي

عمق 40 كيلو متر في لبنان، ولكنه ظل يتجاوز الحد ثم يقنع القادة الإسرائيليين بكلامه المنمق مرة بعد مرة، ولم يكن في قادة إسرائيل في ذلك الوقت من كانت لديه قوة الشخصية ليقف في وجه شارون. أدرك شارون أن أحلامه لن تحقق أبدًا إلا باغتيال عرفات والاستراحة منه. وكوّن لهذا الغرض جماعة سماها Salt Fish وعلى رأسها رفائيل إيتان ومير داغان مجددًا.

كان عرفات ينجو أحيانًا بهروبه قبل التفجير بمدة ثلاثين ثانية وأحيانًا كان بعض القادة لا يبلغون داغان وإيتان بأن الهدف "ناضج" وعلى مرمى طلقة منهم؛ لأن هنالك الكثير من المدنيين أحيانًا وإذا فجروا المبنى فهم لا يريدون تحمل مسئولية مهمة لم تكن أوامرها مكتوبة أصلًا إمعانًا في سرية العمليات.

كان الجيش الإسرائيلي قد تغلغل في الأراضي اللبنانية في الأيام الأولى، وهرب القادة الفتحاويون واندحر الجيش السوري بسرعة لم يكن يتوقعها حتى الموساد نفسه، ولكن عرفات ظل يهرب من يدهم، وبعد خروج منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت وخروج الجيش الإسرائيلي من لبنان، وعد بيغن فيليب حبيب - مبعوث الرئيس الأمريكي ريغن للشرق الأوسط - بأنه لن يقوم بأي عمليات في حالة الانسحاب.

بقيت فرقة Salt Fish برفقة ضباط في الموساد والشاباك بعد الانسحاب، وبينما يراقبون لبنان من الشاطئ رأوا عرفات بين جموع خارجًا بينها على بعد 180 مترًا من قناص فرقة الاغتيال، تواصلوا بالسرعة القصوى مع القيادة المركزية في إسرائيل ولكن رفائيل إيتان أمرهم بعدم التنفيذ حفاظًا على المصالح السياسية المكتسبة مع الأمريكان.

العلم الأسود

رغم أن شارون وعد بأنه سيسحب قواته بعد انسحاب منظمة التحرير من لبنان، أخلف وعده معتقدًا أن انسحاب إسرائيل يعني نزول قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام وفقده السيطرة على أحوال لبنان. وظلت القوات الإسرائيلية مسيطرة على مناطق من لبنان من ضمنها صبرا وشاتيلا، وفي أغسطس عام 1982 صوت البرلمان اللبناني على تنصيب جمايل رئيسًا للبنان، وهو الرئيس الذي سيطرد الفلسطينيين حسب مخطط شارون الكبير للشرق الأوسط.

أراد شارون أن يتخلص ممن بقي من أعضاء المنظمة في لبنان، ولكنه لم يرد أن يذهب

الجيش الإسرائيلي بنفسه إلى المخيمات، فعرض فكرة على بيغن رئيس الوزراء بأن يرسل الكتائب المسيحية ليتأكدوا من قتل كل من بقي من فتح وقبلت الفكرة. وقبل أن تبدأ عمليات اغتيال واعتقال أعضاء فتح، اغتيل جمايل والكثير من القادة معه بتفجير في مقر الكتائب ببيروت بفعل قنبلة زرعها عميل في المخابرات السورية، مما أشعل الحقد في نفوس المارونيين دفعهم إلى أن يقرروا الانتقام من اللاجئين الفلسطينيين، وحصلت مجزرة صبرا وشاتيلا المروعة التي أدت إلى زيادة مظاهرات في إسرائيل كانت مشتعلة أساسًا اعتراضا على الحرب.

أدت هذه المظاهرات - والتي كان كثيرٌ منها أمام بيت مناحم بيغن - إلى دخوله في حالة اكتئاب، فأصبح يهلوس، وشك الكثيرون في قدرته العقلية على الاستمرار كرئيس للوزراء.

تجمُّع هذه الظروف منح شارون الفرصة لأن يستبد بحكم البلد كله لنفسه، فأصبح الرجل الذي لا يعلو صوت فوق صوته، كان يرتب لقاءات مجلس الوزراء المصغر، ومع أن الموساد يأخذ أوامره من رئيس الوزراء مباشرة إلا أن شارون تحكم به كذلك.

طوال الحرب استمرت محاولات اغتيال ياسر عرفات، وطرحت فكرة أن يُغتال بينما يسافر بطائرة خاصة أعطاها له أمراء آل سعود، ولكن الخطة لم يؤبه لها بعد أن اكتشفوا أن طياري طائرته الخاصة يحملان الجنسية الأمريكية. اتجه الإسرائيليون لمحاولة اغتياله عندما يسافر إلى الخارج بطائرة عادية. لكن لم ينجحوا إذ كان الجنود الإسرائيليون يكذبون على إيتان والقيادة لئلا يقتلوا مدنيين، اعتمادًا منهم على سماح القانون الإسرائيلي بأن يرفض الجنود الأوامر إذا كانت غير قانونية.

استمرت الضغوط على إسرائيل مما أدى لفتح تحقيقات انتهت بإلقاء اللوم على المارونيين - وقليل منه على شارون - والإطاحة بشارون من منصبه ومن ثم استقالة بيغن نفسه بعد ذلك.

انقلاب في الشين بيت

كان الشاباك يقوم في السبعينات بعمليات تعذيب وتصفية لكل من يشكون في أنه من (فتح). كانت إحدى طرق تسليم الأسلحة عند فتح أن يضع عضو سلاحًا في مكان محدد لا تدركه العين، فيأتي آخر ويأخذها من هناك، فكان الشاباك يقوم بوضع ألغام في أي مكان يشتبه أن يضع فيه الفلسطينيون سلاحًا، ولكن هذا البرنامج أُلغِي في 1979.

مع تنحي بيغن عن السلطة واعتلاء إسحاق شامير لها، عاد الشاباك بقيادة أفروم شالوم - صديق شامير - لعمليات أكثر وحشية وأقل تساهلًا مع كل فلسطيني. في الثاني من أبريل 1984 اختطف أربعة شباب فلسطينيين حافلة تقل ركابًا إسرائيليين من تل أبيب في طريقها إلى مدينة عسقلان (أشكيلون)، اختطفوها باستخدام مجسمات تحمل هيئة الأسلحة فظن الركاب أنها أسلحة حقيقية. هرب أحد الركاب بعد أربعين دقيقة من الاختطاف واتصل بالشرطة وفي النهاية قبض عليهم.

لم يرد شالوم رأس الشاباك حينها أن يحصل إرهابيون على محاكمة عادلة، فأمر بقتلهم، وبالفعل اقتيدوا إلى مكان ناء وقُتلوا رجمًا بالحجارة على رؤوسهم. تسربت صورة لمجدي أبو جمعة وهو أحد الذين قُتلوا رجمًا تلك الليلة - ادعى الشاباك أنه قُتل بفعل متظاهرين - تسربت صوره له والجنود يقودونه إلى حتفه للصحافة العالمية، فأحدث الأمر ضجة واسعة وظهرت على السطح قصص كثير من الفلسطينيين الذين اختفوا وادعى الإسرائيليون عدم علمهم بالقضية.

أدت الموجة الإعلامية لفتح تحقيق من وزارة العدل، وبعد أربع سنوات من التحقيق والتضليل، اعترف نائب شالوم بأن شالوم هو مَن أعطى الأوامر، ولكن شالوم، خشية السجن، لعب بالورقة الأخيرة في جعبته، فأتى بقائمة طويلة من القتل الممنهج للموساد وأمان والشاباك، وهدد بفضحهم كلهم إذا حُكم عليه بالسجن، فاكتفت وزارة العدل بعزله.

ثم كانت الشرارة

اتسمت فترة الثمانينات بعدة أمور، كان هراري قد اعتزل من الموساد، وكانت القيادات التي شهدت فظائع الحرب العالمية قد استبدلت بقيادات شابة جديدة متعطشة للدماء، فصار على رأس كيدون عميل اسمه كارلوس اشتهر بتنفيذ الاغتيالات والإعدامات بدم بارد. وكان التغلغل الإسرائيلي داخل منظمة التحرير الفلسطينية قد بلغ مبلغًا يصعب تخيله، فكانت تجري عمليات اغتيال الفلسطينيين في أوروبا على قدم وساق، وقد تطور الأمر من أسلوب التفجير إلى أسلوب إطلاق النار من دراجة هوائية، وكانت كثرة العملاء في المنظمة سهلت للموساد إجهاض أي عملية فلسطينية تعتزم المنظمة تنفيذها خارج البلاد.

ومع بدء أحداث الانتفاضة الفلسطينية الأولى، كان عرفات قد قرر ركوب موجة الانتفاضة ونسبتها إلى منظمته، وصدقه إسحاق شامير - عن عمد أو غير عمد - وبناء على ذلك، وبما أن عرفات صار شخصية شعبية قد يؤدي اغتياله لقلاقل لا تحمد عقباها، تقرر اغتيال الرجل الثاني في فتح، أبوجهاد.

كان أبو جهاد مقيمًا في تونس، وكان منزله الشاطئي في تونس معروفًا منذ بضعة سنين لأجهزة الموساد، وحدث الاغتيال بالفعل في 1988 بتسلل فرقة إسرائيلية قادمة من البحر إلى منزله، وبالنظر إلى معايير الاغتيالات فقد كان اغتيالًا ناجحًا، إلى أنه كان فاشلًا في تحقيق مقصده، إذ إن الهدف منه كان الإمساك بزمام الأمور والقضاء على الانتفاضة، ولكنه زاد من معنويات الشعب الفلسطيني وزادت الانتفاضة قوة.

كذلك نُقل عن امنون شاهاك - الذي كان على رأس أمان في ذلك الوقت - أنه تحسر على اغتيال أبو جهاد لأنه رآه رجلًا يمكن التفاوض معه، ناهيك عن كاريزمته التي كان ليستخدمها لإقناع الشعب، وهي كاريزما افتقدها ياسر عرفات.

انتفاضة

في عام 1988، تنكر جنديان من الاستخبارات العسكرية بصفة إعلاميين من قناة ABC الأمريكية، وذهبا إلى قرية سلفيت في الضفة الغربية لمقابلة نزار دكدوك، وهو شاب في 81 من عمره اشتبهوا في قيادته لعصابة شباب فلسطينيين رموا قنابل غاسولين على حافلات إسرائيلية، درسوا طباع الشاب من قبل واستغلوا حبه للظهور والبروز فجاءوا إلى بيته لإجراء مقابلة معه، فقبِل أن يذهب معهم إلى مكان بعيد عن القرية ولم يعد بعدها أبدًا.

كان هذا الاختطاف يأتي في سياق عمليات أوسع، كان إيهود باراك ومير داغان أسسا في 1986وحدة في الجيش سمياها Cherry، كان عملها تنفيذ الاغتيالات في الضفة الغربية لإضعاف منظمة التحرير قدر الإمكان، فكان أعضاء هذه الوحدة يقومون بتنفيذ العديد من الاغتيالات متنكرين بأزياء سائقي أجرة أو نساء مارات في الطريق أو أيًّا كانت طريقة تنكرهم التي لم يكن يشك فيها أحد.

استمرت الاغتيالات حتى سنوات الانتفاضة الفلسطينية التي كانت تزيدها الاغتيالات اشتعالاً. أدت الاغتيالات الممنهجة لقيادات المنظمة أن تصبح فيها القبضة الأمنية الداخلية أقوى وتعتمد أجهزة كشف الكذب - مستوردة من تونس - عند أي تحقق من خلفية عضو جديد، ومع أن التحقيقات الداخلية التي فتحت لم تكشف عن العملاء في المناصب العليا إلا أن السياسة الأمنية صارت أكثر حذرًا وبرعاية تونسية.

في هذه الأوقات، ومع طول المدة وانقراض الجيل الأول، كانت قيادات المنظمة في أوروبا تعودت على الأموال والرفاهية، وانتشر الفساد فيها بشكل كبير، فاستغل الموساد هذا الأمر وجنّد عدنان ياسين وكان آنذاك مسؤولاً عن حجز الفنادق وتذاكر الطائرات واستئجار السيارات للقيادات في فرنسا كلها، وفرنسا كانت وجهة السفر الأقرب للقيادات القادمة أو الذاهبة إلى تونس؛ فكانت محطة اتصال أوروبا بآسيا بالنسبة للمنظمة.

استغل الموساد المعلومات التي لديهم عن مرض زوجة عدنان ياسين بالسرطان واحتياجه للمال، فتقرّب إليه عميل للموساد على هيئة مصري وادعى أنه رجل أعمال ثري وكوّن علاقة معه. وبهذا استدرج عدنان وأكسبه ثقته، وطلب عدنان منه أن يعمل معه مرات عديدة، وبعد مدة عرفه هذا العميل بعميل آخر ادعى أنه إيراني يعمل في السفارة الإيرانية في

باريس، وأقنعوه بالمال ببيع أسرار المنظمة - التي كان يعرفها حرفًا حرفًا - لمن ظنه عميلًا لدى السفارة الإيرانية، إذ رأى أنه يبيع الأسرار في النهاية لصديق (إيران) وليس للعدو.

أحبطت الأسرار التي سربها عدنان ياسين محاولة لاغتيال إسحاق شامير - رئيس الوزراء - وأرييل شارون في أكتوبر 1992، إذ جُنّد إسرائيلي يهودي مثقل بالديون لهذه العملية، كان المجنِد ياسر عرفات وجبريل رجوب، وقبضت عليه السلطات الإسرائيلية بمجرد نزوله من الطائرة.

أما ياسين فقد علم عملية الاغتيال لأنه كان الذي حجز تذكرة طيران المنفذ إلى إسرائيل. كذلك اغتال الموساد عاطف بسيسو - الذي أصبح حلقة وصل بين فتح والاستخبارات الغربية بعد مقتل علي سلامة - في باريس بفضل المعلومات التي قدمها عدنان عن فندق إقامته. وأعلم عدنان كذلك الموساد بوجود جورج حباش في باريس عاصمة فرنسا، كان حباش في العلن على رأس قائمة المطلوبين للدولة الفرنسية، ولكن لأن الغرب بدأ يتعامل ليس فقط مع إسرائيل بل مع الفلسطينيين، فقد سمحوا بمقدم حباش لفرنسا ليتعالج، فما كان من الجانب الإسرائيلي إلا أن سرب المعلومات للصحافة العالمية مسببًا حرجًا وفضيحة دولية للحكومة الفرنسية.

كانت قد بدأت في هذه الأثناء المفاوضات بين منظمة التحرير وإسحاق رابين - الذي عاد لكرسي رئاسة الوزراء - إذ أن عرفات تقلص دوره بعد أن ساند صدام في حرب الكويت واستجلب هذا غضبًا عربيًا ودوليًا، فقرر أن يدعو الإسرائيليين للسلام، وبما أن أي تسريب لمثل هذه المعلومات من قِبل العسكريين والأمنيين سيكون خطيرًا - خاصة وأن رابين أدرك أنه لا مجال للسلام بدون أن يتنازل عن بعض الأراضي، وهذا سيغضب الإسرائيليين جميعًا إذا علموا به - فقد قرر إسحاق رابين ألا يُطلع الموساد والجيش بأمر المفاوضات السرية خشية أن يسرب أي عضو أمر المفاوضات للصحافة، حفاظًا على الأراضي التي وعدهم بها الله.

في هذه الوقت نفسه اكتشف أمن المنظمة وجود أجهزة تجسس في كرسي لأبو مازن طلبته زوجته من أوروبا خصيصًا لحالته الصحية. كان الذي جاء بالكرسي عدنان ياسين من فرنسا، وكان الموساد مَن ركب هذه الأجهزة في الكرسي بعد أن أعلمهم عدنان بما طلبته زوجة محمود عباس، لكن هذا الأمر لم يعكر من صفو الجانبين الجالسين على طاولة المفاوضات.

طبقًا لرواية غير موثقة ولكنها مدعومة بالأدلة، علم أحد دبلوماسيي إسرائيل في تسليم تقرير روتيني لرئيس الوزراء بأن الموساد يتجسس على عباس عن طريق آلة تجسس في الكرسي، فأعلم الجانب الفلسطيني لكي يتخلصوا من الكرسي سريعًا قبل أن يعلم الموساد بأمر المفاوضات الجارية، وبالفعل حققت المنظمة وأسرت عدنان ياسين واعترف تحت التعذيب بكل شيء، ولكن في النهاية لم يُعدَم ياسين بل حُكم عليه بـ15 سنة سجن لا أكثر، واستمرت المفاوضات لستة أشهر في أوسلو.

نبوخذ نصر

كانت إسرائيل تدعم انفصال الأكراد عن العراق علنًا وتدعمهم بالخبراء العسكريين منذ الستينات سرًّا، إذ أنهم كانوا يرون العراق عدوًا وكانوا يدعمون الأكراد وفق مبدأ "عدو عدوي صديقي"، ولكن هذا العداء للعراق ازداد في السبعينات إذ علموا أن صدام حسين يجهز لشراء مفاعل نووي من فرنسا التي كانت تريد نفوذًا أكبر لها في الشرق الأوسط، ودفع لها صدام مبلغ ملياري دولار زائد عليها تخفيضات في بيع نفط العراق لفرنسا مقابل المفاعل النووي.

بدأ الموساد في التخطيط لإحباط الصفقة فتواصلوا مع عالِم عراقي يعمل في باريس كان من ضمن الفريق، وكان أن علموا أن ابنه مصاب بالسرطان ويتلقى العلاج في العراق، فأتموا صفقة معه بأن يأمن الموساد علاجًا أفضل وأرقى لابنه في فرنسا مقابل تسريب معلومات عن المفاعل، وكان للموساد مصادر أخرى من الفريق الفرنسي من علماء وسكرتيرات اشتروا بعضهم بالمال وبعضهم يهود تعاونوا لأسباب عقائدية.

ونجحت مهمة جمع المعلومات ففجروا السفينة التي كانت ستحمل المفاعل إلى العراق، وأدى هذا إلى إتلاف غلاف المفاعل وظن الموساد أنهم بهذا سيؤخرون الصفقة على الأقل لسنتين. بيد أن هذا لم يوقف طموح صدام الذي أبلغ فرنسا بأنه يريد المفاعل في وقته حتى مع المخاطر التي تحيط بالأمر- إعادة التغليف السريعة قد تؤدي لانفجار المفاعل - وفي نفس الوقت أرسل للعراقيين المنخرطين في البرنامج فيديو لإعدام مسئولين عراقيين مشكوك في تسريبهم للمعلومات، وكانت هذه رسالة شديدة اللهجة لكل الفريق النووي أن من يُشك فيه فمصيره القتل وبهذا أمِن من شر التسريبات من الفريق العراقي.

ولكن الموساد تواصل وجنّد العمال الفرنسيين الذين يعملون في البرنامج، وحصل منهم على "كتاب المشروع"، وهو كتاب يحوي تقريبًا كل المعلومات والتفاصيل عن المشروع وعمن يعملون فيه، وبعد هذا تقرر أن ينتقل الموساد للخطة الثانية، اغتيال العلماء العرب الضالعين في البرنامج.

كانت أولى الاغتيالات لعالم مصري هو يحيى المشد الذي كان سيسافر حاملًا معه المفاعل الصغير ذو الـ10 كيلو، وفي الليلة التي سبقت خروجه من فرنسا ذهب ليبيت في فندق وأمر مرافقيه الأمنيين بالمبيت في فندق قريب لأن فندقه كان عالي التكلفة، وبما أن الموساد كان يراقب تحركاته وتأكد من أنه وحده ذهبوا للفندق وطرقوا الباب ليفتح لهم ثم دخلوا وقتلوه.

مع أن صدام أمر بحراسة كل العلماء ذي المرتبة الرفيعة ودربهم على بعض الإجراءات الأمنية، لكن هذا لم يوقف الاغتيالات إذ كان بعضهم يموت بسم لا يعرف من أين جاء، وبعضهم يموت بسبب تسمم الطعام الذي يأكلونه في الحفلات، وفي هذه الأثناء كان الموساد يرسل رسائله للعلماء الفرنسيين بأن حياتهم في خطر ما لم ينسحبوا، ولكن هذه الاغتيالات لم توقف البرنامج فأدرك الإسرائيليون أن الحل الوحيد لإيقافه هو ضربة جوية عسكرية لا غير.

علا صوت المنادين بالضربة العسكرية على خصومهم داخل الإدارة الإسرائيلية، ونفذت الطائرات الإسرائيلية التي طارت فوق الأراضي السعودية والأردنية المهمة بنجاح؛ إذ ضربت المفاعل ودمرته تمامًا ولم تتلقَ ولو طلقة واحدة من جانب العراقيين الذين أُصيبوا بالذهول. توقع الإسرائيليون أن يوقف هذا البرنامج، ولكن صدام على العكس، زاد من ميزانية البرنامج، ولكن هذه المرة أراد أن يصنع صواريخ نووية وبيولوجية وكيميائية تستطيع ضرب تل أبيب وطهران بدقة متناهية، وعين لذلك عالِمًا كنديًا، إلا أن الموساد وصل لهذا العالِم الذي لم يأخذ تهديداتهم بجدية واغتالوه أمام بيته.

وفي هذه الأثناء بدؤوا يخططون لاغتيال صدام حسين نفسه، ومع تقديم عشرات الخطط لاغتياله إلا أن الخطة الوحيدة التي ارتاحوا لها انتهت بكارثة عندما كانوا يتدربون عليها، انتهت بمقتل وإصابة العديد من الجنود، وهنا توقفت خطط اغتيال صدام.

هبوب رياح عاصفة خضراء

في غلطة تاريخية أخرى نظرت الأجهزة الأمنية الإسرائيلية للثورة في إيران نهاية السبعينات على أنها لا تشكل خطرًا على نظام حليفها الشاه، ولكن تزايد الاحتجاجات وموجات أشرطة الخميني الموزعة في إيران، جعلت الشاه ونظامه يدركون أنه من دون دعم أمريكي لا يمكن تثبيت النظام.

هنا عمد الشاه إلى الطلب من الموساد أن يغتالوا الخميني في فرنسا، ولأن الموساد لم يمتلك المعلومات الكافية عن مكان إقامة الشاه في فرنسا، ولأنهم لم يريدوا المزيد من الإشكالات الدولية باغتيال رمز وطني آخر، تخلّوا عن فكرة اغتيال الخميني مباشرة، وظنوا بأن السافاك يمكن أن يقوم بالمهمة بمجرد عودة الخميني لإيران. امتنعوا عن مهمة سيندم عليها الموساد كثيرًا لاحقًا.

عام 1973 كان الخميني قد أرسل رفيق دربه الذي قابله لأول مرة في العراق محتشمي بور إلى لبنان مع جماعة من الإيرانيين الذين يثق بهم، وتلقوا التدريبات العسكرية وطرق عمليات التخريب والإرهاب على يد منظمة التحرير، إذ كان عرفات يبحث عن شرعية دولية للمنظمة، ورأى العلاقة مع إيران مهمة وأصبحت هذه الجماعة الإيرانية نواة الحرس الثوري فيما بعد.

بعد ثلاث سنوات من سقوط نظام الشاه، عيّن الخميني محتشمي بور سفيرًا لإيران في سوريا، ولكن مهمته الحقيقية كانت قيادة الحرس الثوري في لبنان التي كانت تسيطر عليها سوريا، واقتنع الرئيس السوري حافظ الأسد بعد حرب 1982 بضرورة التحالف مع إيران بعد أن رأى هشاشة قواته أمام إسرائيل، وفي أثناء عمله سفيرًا في سوريا درّب وتحالف محتشمي بور مع الشيعة في لبنان، وأسس جماعة حزب الله، ونفذوا عمليات انتحارية في لبنان ضد الجيش الإسرائيلي وضد الجيش اللبناني الموالي لإسرائيل، بينما نفذ الموساد - الذي لم يعرف بهذه الجماعة إلى بعد بضع عمليات إنتحارية ضدهم - عمليات اغتيال ضد اللبنانيين الشيعة والإيرانيين، فقد نجا محتشمي بور نفسه من انفجار طرد بريدي وصل لمكتبه في دمشق، ونجا الشيخ فضل الله - أكبر مشائخ الشيعة في لبنان - من الاغتيال، واغتيلت قيادات شيعية أخرى بنجاح.

أدرك الإسرائيليون أن طريقة الطرد البريدي المنفجر أثبتت فشلها مرارًا وتكرارًا، وطريقة الاغتيال المباشرة خطرة على عملائهم العرب إذ قد يُمسك بهم ويحدث ما لا تُحمد عقباه.

أما حزب الله فقد نفذ بقيادة عماد مغنية الذي درب جنود حزب الله على العديد من العمليات: 3245 عملية، راح ضحيتها 98 جنديًا إسرائيليًا، و134 حليفًا لبنانيًا ما بين 1984-1991.

عصر الطائرات بدون طيار

توفرت طائرات الدرونز لدى إسرائيل قبل حرب أكتوبر، ولكن استخدامها كان غير ذي نفع كبير؛ إذ أنها كانت تستخدم لالتقاط الصور في إطار عمليات التجسس ليس إلا، وبعدها يأخذ العمل على الصور وقتًا. ولكن بعد حرب أكتوبر وانهيار القوات الجوية الإسرائيلية أمام جيشي مصر وسوريا في أول يوم، بدأ توجه لتطوير الطائرات بدون طيار.

في أوائل التسعينات توصل العلماء الإسرائيليون إلى طريقة تجمع بين تصوير فيديوهات وإمكان مشاهدتها مباشرة من المقر وإطلاق الدرون لليزر يحدد موقع لاستهدافه بدقة متناهية، إضافة إلى اتصال الدرون بطائرة أباتشي تطلق الصاروخ على الهدف مباشرة، كل هذا والدرون حجمه صغير. باع الموساد التقنية فيما بعد للأمريكان الذين استخدموها إلى عام 2007.

دعت الحاجة إلى استخدام هذه الطريقة في الاغتيالات بعد أن فشلت طريقة الطرد البريدي كثيرًا، وأصبح عملاؤهم المحليون في خطر لا يمكن إسناد المهمة معه لهم. كان أول من استخدموا الطائرات بدون طيار لاغتياله هو حسين الموسوي الأمين العام لحزب الله، إذ استغلوا وجوده في العزاء في حسينية في مدينة جبشيت الجنوبية اللبنانية القريبة من المنطقة الآمنة التي أسسها الجيش الإسرائيلي. ولأن الصور المقدمة من الطائرة لم تكن واضحة تمامًا رأوا سيارتين وشكوا في أيهما يكون، فضربوا السيارتين ومات هو وزوجته وابنه وبهذا بدأ عصر الطائرات بدون طيار.

انتقام مغنية

بعد اغتيال موسوي توقعت الأجهزة الأمنية أن يخلفه في منصب الأمين العام الرجل الثاني له وهو صبحي الطفيلي، ولكن إيران رشحت أن يخلفه شاب يحمل توجهات أكثر عدوانية تجاه إسرائيل من الطفيلي الذي أراد التركيز على السيطرة على لبنان، كان اسم هذا الشاب حسن نصر الله.

وبعد أن أصبح هذا الشاب الأمين العام أطلق يد عماد مغنية لينتقم من إسرائيل، فابتدأ مغنية عملياته بتفجير أمام السفارة الإسرائيلية في الأرجنتين لم ترد عليها القوات الإسرائيلية كثيرًا، وظل الوضع هادئًا لعامين طور خلالها مغنية الأجهزة الحربية للحزب، من راديوهات وأجهزة تواصل، وحتى زرع عملاء في الجيش اللبناني الجنوبي في المنطقة الآمنة.

وبعد عودة هجمات مغنية بتفجير قريب من السفارة الإسرائيلية في بانكوك، قرر الموساد اغتيال مغنية وخططوا لاغتيال أخيه الثاني فؤاد ثم اغتيال عماد في جنازة أخيه. نفذ الموساد الجزء الأول وهو اغتيال فؤاد بمساعدة عميل فلسطيني كان تاجر مخدرات وسجينًا في سجون الاحتلال، أفرجوا عنه مقابل العمل لحسابهم، ولكن عماد لم يأت جنازة أخيه تحرزًا، واتضح لاحقًا أن أربع عملاء من الموساد قد حضروا الجنازة استعدادًا لاغتياله.

وبعد التحقيق قبض حزب الله على زوجة أحمد الحلاق العميل قبل سفرها، أما الحلاق فقد سافر لبلد شرق آسيوي ولم يتأقلم هناك وقرر العودة للبنان في 1996، وتسرّب خبر عودته من قِبل عميل مزدوج يهودي يعمل لحزب الله، وقبض الحزب على الحلاق وأعدمه.

ضغطة واحدة

في ستينات وسبعينات القرن العشرين، أسس الشيخ أحمد ياسين مع مجموعة من الإخوان المسلمين في فلسطين جماعة إسلامية دعوية كانت تُعنى بالدعوة والأعمال الخيرية الاجتماعية، أسست هذه الجماعة تحت عين الشاباك وكانت أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية تدعمهم في البداية ظانين أن هذه الجماعة الدينية - حركة المقاومة الإسلامية حماس - التي لا تحمل اتجاهًا قوميًا ستقلل من شعبية منظمة التحرير التي بدأت تلقى زخمًا دوليًا، وفي ذات الوقت لن تشكل خطرًا لأنها لا تمتلك أيدولوجية الانتماء الوطني.

ولكنهم كانوا مخطئين، إذ عرفوا في 1984 عن طريق أسير تحت التحقيق في عملية إرهاب عن جمع الجماعة للسلاح وتخزينه، فقُبض فورًا على الشيخ أحمد ياسين وقائد الوحدة العسكرية صالح شهادة وآخرين من أعضاء الجماعة، وعلموا أن الجماعة جهادية وتتلقى تمويلًا من الشيخ عبدالله عزام والشيخ أسامة بن لادن.

لم يبقَ الشيخ في السجن لأكثر من عام؛ إذ فُك أسره في صفقة تبادل أسرى مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وبعد أن أطلق سراحه عمل الشيخ على تبني الهجمات الإنتحارية كنوع من العقيدة القتالية، وطوّر التواصل بين الأفراد وكان هو بنفسه يحفظ 1500 اسم رمزي من أعضاء الحركة.

في 1988 تلقى الشاباك معلومات تفيد بأن الحركة تهيئ لعمل ما، فأسر 180 من أعضاء الحركة ووضعهم تحت التحقيق، ولكن لم يحصلوا على أي معلومة منهم؛ إذ إنهم كانوا مدربين جيدًا كلهم على سيناريوهات الاعتقال والتحقيق.

وأثناء اعتقاله كان صالح شهادة يقود من السجن الوحدة العسكرية التي تحولت لجناح عسكري سُمي بكتائب عز الدين القسام. في عام 1989 بدأت حماس أول عملياتها ضد الجيش الإسرائيلي باختطاف وقتل جنديين، هرب منفذا العملية إلى مصر بعد ذلك، واعتُقل وعُذب كل من اكتُشف أنهم تعاونوا في هذه العملية. أما الشيخ أحمد ياسين فقد حُكم عليه بعد هذه العملية بالمؤبد.

وكردّ فعل على سجن القيادات المعروفة تمكن أعضاء حماس من إلقاء القبض على جندي إسرائيلي، وطلبوا من الحكومة الإسرائيلية عملية تبادل أسرى. كان رد الشاباك على هذه المطالب بعمليات مداهمة واسعة، فردّ أفراد الجماعة بقتل الأسير، وبناء على هذا قرر الإسرائيليون طرد 004 فلسطيني كان يُشك بأن لهم علاقة بحماس إلى لبنان. ولكن المفاجأة أن لبنان أغلقت حدودها فتركت الحكومة الإسرائيلية هؤلاء المطرودين على الحدود، وبعد أسبوع من مجيئهم إلى حدود لبنان تلقى هؤلاء الفلسطينيون زيارة من وفيق صفا الذي كان بمثابة وزير خارجية حزب الله.

أتى بعده عناصر من حزب الله وتواصلوا مع الأسرى الذين لم يكن أكثرهم من حماس، وفي هذه الفترة دربوا هؤلاء الفلسطينيين على تصنيع المتفجرات، كان من بين الذين تلقوا هذا التدريب المهندس الشاب يحيى عياش، وبعد مدة وبعد أن فُضح الأمر للإعلام العالمي،

عاد المطرودون إلى فلسطين بفعل الضغوط الدولية والإعلامية منتصرين.

في 1994 فتح دكتور يهودي أمريكي النار على المصلين في المسجد الإبراهيمي، وكانت هذه الحادثة شرارة أشعلت الهجمات الانتحارية، فردّ يحيى عياش بعمليات تفجيرية واستشهادية في الأراضي المحتلة لأول مرة، واستثارت هذه العمليات التي نُفذت من قِبل حماس غيرها من الجماعات الإسلامية، فنفذوا هم بدورهم بعمليات كثيرة راح ضحية إحداها أكثر من ثلاثين جنديًا إسرائيليًا.

حري بالذكر أن حماس كانت أحسن تنظيمًا من المنظمة، وأن القيادات في السجن كانت تنقل الأوامر إلى الخارج بلغة شيفرات لم يفهمها الإسرائيليون، وأن الذين قُبض عليهم لم تخرج منهم أي معلومات خطيرة تحت التحقيق لأنهم تلقوا تدريبًا جيدًا.

ائتونا برأس عياش

بمرور الوقت تحولت العمليات التي يقوم بها الفلسطينيون إلى خطر استراتيجي في تعريف الأنظمة الاستخباراتية الإسرائيلية، فقد أصبحت حكومات تتغير بسبب هذه العمليات، وعلى الجانب الآخر كان دم إسحاق رابين يغلي إذ طلب أكثر من مرة أن يقدموا له أوراق حمراء كي يوقعها تعبيرًا عن غضبه. حقق الشاباك لرابين رئيس الوزراء ما أراده فقدموا له ورقتين حمراوتين عن الرجلين المسؤولين عن أكثر التفجيرات، أولهما مصطفى شقاقي وثانيهما يحيى عياش.

كان مصطفى شقاقي مؤسس حركة الجهاد الإسلامي الفلسطيني قد هُجّر من فلسطين في 1988 بعد أن سُجن ثلاث مرات، وهُجر إلى لبنان وهناك احتضنه الحرس الثوري الإيراني، ورتبوا لانتقاله للعيش في دمشق، ومن هناك مولوه ودعموه لإنشاء الحركة التي بدأت بتنفيذ العمليات تأسيًا بيحيى عياش في داخل الأراضي المحتلة.

كان الشقاقي على صلة بالقذافي ومقربًا منه، وكان إذا أراد السفر إلى ليبيا يأخذ رحلة تمر بمالطا ثم يمكث فيها يومين أو ثلاثة، واكتشف الموساد هذه المعلومات بعد أن نجحوا في التنصت على خط هاتف مكتبه، واستغلوا هذا الثغرة الأمنية فقتلوه وهو يتسوق وحيدًا في مالطا في 1995، وبعدها تحولوا للتخطيط لاغتيال يحيى عياش.

كانت العقبة الأولى أمام اغتياله هي معرفة مكانه، إذ أنه كان لا يثق بأحد تقريبًا ولا

يبيت ليلة في مكان واحد، ولهذا لم ينجحوا في الحصول على أي معلومة عنه. كانت طريقة عمل الشاباك إلى هذا الوقت في الضفة والقطاع تسليم مهام كل منطقة لمجموعة معينة، ولا تكاد هذه المجموعة تتصل بالمجموعات الأخرى لتقديم المعلومات. لهذا كان أول ما فعله رئيس القيادة المركزية للضفة الجديد يسرائيل هسون في 1995 أن جعل الجميع تحت أمره يسلمون له التقارير ويتبادلون المعلومات، بمعنى تعاون أمني كامل من جميع وحدات الشاباك خصيصًا لمهمة اغتيال يحيى عياش.

مع كل هذا الدمج لم يصلوا إلا إلى معلومة واحدة، هي أنه يذهب لبيت صديقه بالجامعة أسامة حماد باستمرار ليحدث والده بالهاتف لمدد طويلة. كانت هذه المعلومة كافية ليتخلص الشاباك من "المهندس"، فجندوا خال أسامة ووعدوه بأن يتموا تدابير سفره وأسرته لأمريكا مقابل أن يهدي ابن خالته أسامة هاتفًا وضعوا فيه متفجرات وآلات تنصت. كانت الخطة أن يفجروا الهاتف في لحظة سماع صوت عياش يكلم والده، وبعد محاولة أولى فاشلة اغتيل المهندس يحيى عياش في الثانية.

خبيث كالحية، ساذج كالطفل

لم تمت هجمات حماس ضد الإسرائيليين بموت عياش، إذ أنه كان قد درّب في سنين نشاطه مجموعة من الشباب الفلسطينيين على تصنيع القنابل، وتولى قيادة المجموعة محمد ضيف.

في إحدى نهايات عام 95، قرر إسحاق رابين أن يخرج في خطاب موجه للشعب الإسرائيلي، وخلال كلمته أطلق عليه شاب يهودي النار وأرداه قتيلًا، كان هذا الشاب متدينًا يمينيًا يرفض أي نوع من المصالحة أو السلام مع الفلسطينيين.

خلفه في هذا المنصب بيريز الذي أراد من عرفات أن يقبض على محمد الضيف إذ أنه يعيش في غزة تحت سلطة عرفات، ولكن عرفات لم يكن متجاوبًا تمامًا فقد كان يساعد إسرائيل ضد حماس أحيانًا ويتكاسل أحيانًا أخرى، وبعد الانتخابات ذهب بيريز وصعد بنيامين نتنياهو اليميني الذي لم تكن لديه أية نية لاستكمال مفاوضات أوسلو، فرفع عنها يده بل وبعد مدة أراد أن يغتال قادة حماس لسبب بسيط وهو عودة الهجمات على الإسرائيليين، فوقع الإختيار على خالد مشعل.

كان مشعل يسكن في الأردن وكانت خطة اغتياله أن يقترب منه شخص في مكان مفتوح ويرش عليه - وهو لا يشعر - سائل سام أعد خصيصًا لهذه المهمة، ولكن في النهاية فشلت المهمة وهرب عميلا الموساد وصادف أن يكون محمد أبو سيف - وهو عضو في حماس - ماشيًا قرب مكان العملية، فلاحق عميلي الموساد وقبض عليهما بعد مدن من الملاحقة، وأصدرت حماس بيانًا يتهم فيه الموساد بمحاولة اغتيال قيادي حمساوي داخل الأراضي الأردنية، وتورط نتنياهو وقيادات الاستخبارات، وبضغط من ملك الأردن - الذي كان غاضبًا لعدم إعلام الموساد له بالمهمة - ورئيس الاستخبارات الأردنية الذي قال لهم بكل صراحة "لو أعلمتمونا لكنا نفذنا المهمة معًا" أجبر الموساد على أن يداوي خالد مشعل ويطلق سراح الشيخ أحمد ياسين.

نقطة منخفضة

بطريقة ما أصبحت الأجهزة الأمنية الإسرائيلية في القاع في 1997؛ فالموساد فشل في اغتيال خالد مشعل، والشاباك لم يستطع أن يحمي إسحاق رابين من الاغتيال، ووحدة من الجيش الإسرائيلي أرادت تنفيذ مهمة اغتيال في لبنان في 04/09/1997 فاتضح أن تقنيات حزب الله تطورت إلى حد أن يرصدوا جنود إسرائيل ثم يوقعوهم في فخ ويُحدثوا مجزرة بحقهم.

الأكثر من ذلك أن توقع العمليات الفلسطينية صار أقل بكثير؛ فالشاباك كانت لديه مشكلتان أساسيتان. أولًا كيفية جمع المعلومات، إذ إنهم كانوا يعتمدون على العامل البشري وأصبح هذا متعذرًا بعد انسحاب الجيش الإسرائيلي من الضفة والقطاع ومن ثم المجازر التي حصلت لعملائهم هناك، وثانيًا كيفية استخدام المعلومات إذ إنها كانت تكتب في أوراق ثم تتكدس في الرفوف دون جدوى.

ونتيجة لهذا بدأ الشاباك استخدام التقنيات الإلكترونية الجديدة كالحاسوب ثم الـ GPS لتعقب الهواتف التي يتنصتون عليها، أثبتت التقنيات الجديدة نجاحًا باهرًا فنقلوا الخبرة للأجهزة الأمنية الأخرى. وثانيًا أسست غرفة عمليات مشتركة بين الشاباك وأمان ويمام - وهي وحدة مكافحة الإرهاب التابعة لشرطة الحدود الإسرائيلية - لأول مرة في عملية اغتيال محي الدين شريف.

كان محي الدين شريف من أعضاء كتائب القسام وقد تعلم على يد المهندس يحيى

عياش كيف يصنع قنبلة متفجرة من أقل المواد المتوفرة، وتفوق فيها لدرجة أنه كان يُدعى بـ"المهندس 2". كون جهاز الشاباك من خلال المعلومات التي تلقاها من التنصت على شريف فكرة واضحة عن هجماته وعلم بمخطط لتفجير سيارة وسط إحدى الأسواق التي يكثر فيها الإسرائيليون في القدس، وبناء على هذه المعلومات قرروا أنه يجب أن يغتالوه ، قبل مدة وجيزة من تسليم الشريف السيارة لجندي القسام الذي يجب أن ينفذ العملية تمكنوا من تركيب قنبلة في السيارة ثم انتظروا حتى يقودها الشريف إلى مكان يبعد عن المدنيين ثم فجروا السيارة وكان هذا في 1998 في رام الله.

لكن الشاباك أحس بأن قطعة من اللغز مفقودة، ومع تتابع التحقيقات وجمع المعلومات توصلوا إلى ما مفاده أن هنالك أناسًا آخرين لا بد أن يقتلوا، وكان هذان هما الأخوان عوض الله. كان عادل عوض الله هو قائد الجناح العسكري للقسام في الضفة الغربية، كان عادل عوض الله على قائمة المطلوبين منذ مدة ولكن بفضل جهاز حماس الأمني كان يتمكن من الفرار كل مرة حتى لو قُبض على زملائه. كان عادل مدربًا من قِبل يحيى عياش على كيفية صنع المتفجرات، وأما أخوه الأصغر عماد فكان لتوه هاربًا من سجون السلطة الفلسطينية، وكانا في ذلك الوقت يخططون لتنفيذ عملية تسميم المياة في تل أبيب، وبما أنهما كانا ينامان في أماكن مختلفة كل ليلة ولا يثقان إلا بالقليل من الناس فقد تواصل الشاباك مع أحد أعضاء الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين كانا يثقان به.

كان بضعة من أعضاء الجبهة يتعاونون مع الأخوين ووفروا لهما المأوى لمدة، فضغط الشاباك على أحد هؤلاء الأعضاء ووعد الشاباك هذا العميل بسفره هو وأهله لأمريكا والإقامة الدائمة هناك بشرط أن يتعامل معهم، فقبل واستخلصوا منه معلومات حساسة منها مكان إقامة الأخوين، وأعطاهم نسخة من مفتاح البيت.

كان البيت مهجورًا ومملوكًا لعائلة عميل الشاباك الجديد، فقضى الأخوان فيه ست ليال، وبينما يخرج الاخوان ذات ليلة دخل الشاباك البيت وركبوا فيه أجهزة تنصت وكاميرات وعلموا بعد أربعة أيام متواصلة من التنصت أسرار الأخوين وعاداتهما وأنهما يحملان معهما الكثير من الأوراق السرية التي لا يأمنان تركها في مكان واحد. فتمت الإغارة عليهما ليلًا وتصفيتهما وبمقتلهما حصل الشاباك على الكثير من الأسرار الخطيرة عن حماس.

حرب كلية

مع فوز ايهود باراك ضد نتنياهو الذي اتسم عصره بالفضائح والأخطاء الأمنية الجسيمة مثل حادثة مشعل، توقع الشعب الإسرائيلي مستقبلًا أكثر أمانًا لإسرائيل. ولكن ايهود باراك لم يستطع أن يقنع الفلسطينيين في لقاءات كامب ديفيد التي عقدها كلينتون بينه وبين عرفات. ومع تزايد الضغط الشعبي على باراك استغل شارون الفرصة ليعود لواجهة السياسة، فراح مع جماعة من اليهود اليمينيين للمسجد الأقصى فاقتحمه مدعيًا أن المسجد لليهود؛ مما استفز وأخرج الشعب الفلسطيني - وأغلبه من الشباب - معتصمًا أمام ساحات المسجد، وتولدت احتكاكات انفجرت عنها الانتفاضة الفلسطينية الثانية، والتي سيُقتل فيها آلاف من الفلسطينيين ومئات من الإسرائيليين.

كانت الهجمات الإسرائيلية قد كثرت، وبكثرتها زادت الهجمات الانتحارية الفلسطينية، والتي لم يكن لها حل إلا الرد بالاغتيالات. ولهذا بدأ الشاباك استخدام تقنية الليزر ليوجه الصواريخ الحربية لأول مرة داخل المناطق التي يسيطر عليها، هذا بالإضافة إلى تقنيات مراقبة الهاتف وتحديد الموقع والعملاء الميدانيين، فبالتعاون مع مخبر فلسطيني استُهدفت سيارة حسين عبيات العضو البارز في حركة فتح بالليزر ليسهل توجيه الصاروخ. وبنفس الطريقة اغتيل القيادي في الجبهة الشعبية أبو علي مصطفى.

ومع إدراك الحركيين الفلسطينيين أن الهواتف المحمولة مراقبة، توجهوا إلى الهواتف العامة، فبدأ الشاباك يفخخ الهواتف العامة كذلك لتنفجر في وجه الفلسطينيين المراد اغتيالهم حالما يتعرفون على صوت المتحدث، وهكذا كان اغتيال إياد حردان، عضو حركة الجهاد الإسلامي. وهذه الطريقة تجدي مع من يستخدم نفس الهاتف مرارًا وتكرارًا.

ولكن المشكلة أن اغتيالات الجيش الإسرائيلي لم توقف الانتفاضة بل أدت لإراقة المزيد من الدماء، وأدرك الاقتصاديون الإسرائيليون أن الأراضي التي احتلوها لم تعد تجذب المستثمرين الأجانب على الإطلاق، فقرر شارون - الذي انتُخب خلفًا لباراك على خلفية فشله في كامب ديفيد - زيادة الاغتيالات بحق حماس، لكن هذه المرة يجب اغتيال القادة الذين كانوا يُسجنون فيما قبل.

انتحاريون أكثر من السترات الناسفة

لم تكن استراتيجية اغتيال الانتحاريين مثمرة، فهؤلاء منفذون يسهل استبدالهم بغيرهم، وبحسب دراسة أجرتها DWTI إدارة تطوير الأسلحة والبنية التحتية التكنولوجية لم تكن اغتيالات الشخصيات الكبرى كافية كذلك؛ فهؤلاء لهم من ينتظرهم، ولذلك أجروا دراسة توصلوا من خلالها إلى أن تصفية الطليعة بكاملها - بمعنى ما يقارب الـ20% أو الـ52% الذين على قمة هرم القيادة في حماس - سيؤدي إلى تقليل متوسط عمر القيادات وبالتالي يقل متوسط خبرتهم. كانت المشكلة الكبرى أنهم كثيرًا ما كانوا يُفاجَأون بانفجار وسط المناطق اليهودية لم يحسبوا له حسابًا لصعوبة التعقب في الضفة. في بدايات القرن كانت الدرونز - الطائرات بدون طيار - تطورت لدرجة أنها تستطيع أن تظل يومين في الهواء، وكان الشعب الفلسطيني تعود على الطائرات بدون طيار التي تحلق فوقه، وبحسب تقديراتهم فإن جيش الدرونز الإسرائيلي كان بإمكانه التغلب على جميع دبابات الجيش السوري.

قرر شارون أنه يجب استخدام هذه الإمكانيات الجبارة لقمع الانتفاضة، فأمر أن تُشكَل غرفة عمليات بقيادة الشاباك، وتتكون من أمان والموساد كذلك، مهمتها دمج تقنية الدرونز مع غيرها من التقنيات المستخدمة سلفًا، فكان الشاباك يستخدم الدرونز للأهداف التي تحتاج إلى نظرة قريبة حتى تنزل إليها الطائرة، أما صواريخ طائرات الأباتشي كانت تستخدم للأهداف الواضحة من بعيد.

لم يكن في هذه التكتيكات كثير جديد فالجواسيس الميدانيون هم هم، والقناصون كذلك، ولكن الخطر هو قابلية التوسع الرهيبة لهذه الاغتيالات، فما كان يستغرق من قبل شهورًا وربما سنين أصبح يستغرق خمسة أو أربعة أيام، ففي عام 2000 نفذت إسرائيل 42 اغتيالًا، وارتفع الرقم سنويًا حتى وصل في 2003 إلى 135 اغتيالًا بالصواريخ والدرونز.

كانت الانتفاضة الثانية فترة انتقلت فيها إسرائيل من عهد نفي المسئولية عن الاغتيالات إلى مرحلة تبريرها، ومن ثم تجاوز الأمر مرحلة التبرير إلى حد استصدار قانون من المحكمة العليا الإسرائيلية يشرع هذه الاغتيالات، حتى لا يُقاضَى أي من الجنرالات بجرائم حرب لاحقًا. ولكن تنفيذ الاغتيالات لم يكن عبثيًا، كانت طريقتهم في تحديد من سيُغتال من غيره هو

موازنة ضرر اغتيال المستهدف بالأضرار التي يمكن أن تلحق بإسرائيل، فلم يكونوا يغتالون رجلًا ثانويًا في وسط مدنيين، لأن سمعتهم ستسوء في المجتمع الدولي والأمر لا يستحق. إلا أن الاغتيالات لم تكن محل اتفاق بين قيادات الأجهزة الأمنية الإسرائيلية، إذ كانت تحدث نقاشات داخلية حول جدوى بعض الاغتيالات، وهل الاغتيال هو الحل الأمثل أم لا. إحدى الاغتيالات التي أثارت نقاشًا كانت حادثة اغتيال عضو حركة فتح رائد كرمي. كان كرمي متهمًا بتدبير عمليات ضد مدنيين إسرائيليين، عرف الشاباك عنه أنه يزور امرأة سرًّا كل صباح ويسير محاذيًا الجدران حذرًا من الطائرات، فلغموا إحدى الجدران وهو ذاهب لزيارة المرأة في وقته المعتاد وفجرو الجدار معه. أتى هذا الاغتيال برد فعل من فتح بمزيد من الهجمات، وأتى كذلك بغضب أمريكي، إذ كانت أمريكا تريد التهدئة في خضم سعيهم للتهدئة بين الطرفين.

نظرة أمريكا سرعان ما تغيرت مع أحداث 9/11، إذ اقتنع الساسة الأمريكان بالطرق الإسرائيلية لمكافحة الإرهاب ورفعوا التعاون مع إسرائيل إلى أقصى مستوى ليستفيدوا من برامج الاغتيالات وطرق مكافحة الإرهاب، وأعطتهم إسرائيل حرية الوصول إلى أدق المعلومات الأمنية، في المقابل توقفت بالكامل جميع الانتقادات التي كانت تأتي من المجتمع الدولي عند أي اغتيال.

”تم تصفية الهدف ولكن فشلت العملية“

من الإجراءات الضرورية عند أي عملية اغتيال أنه يجب التعرف على الشخص المستهدف والتأكد منه على الأقل من عميلين ميدانيين مستقلين، وهذا التعرف ضروري حتى لا يقتل أخو المستهدف أو أبوه أو شبيه له. وقد حصل التعرف على صلاح شهادة - القيادي في حماس والمتهم بتدبير الكثير من العمليات وأحد أكثر المطلوبين - مرتين ولم يُستهدف لوجود مدنيين كُثر حوله، ولكن في المرة الثالثة، في عام 2002 قرر المسؤول عن عملية اغتيال شهادة ألا يكترث بالمدنيين؛ لأن التخلص من شهادة يستحق العواقب، فأطلق على منزل صلاح صاروخ من طائرة F-16 وعلى أهله وأهالي آخرين عاشوا في نفس المبنى ذي الطوابق الثلاثة وماتوا كلهم.

هذه الحادثة بالذات لم تمر مرور الكرام، فقد استقال على إثرها بعض رجال الجيش والشاباك معترضين على قتل المدنيين، وأثارت الحادثة ردود فعل في الوسط الإسرائيلي والإعلام الإسرائيلي وحدثت مظاهرات داخل إسرائيل، ولكن وللمفارقة تزامن هذا مع صمت دولي.

ثورة في الوحدة 8200 / قطف شقائق النعمان

بعد عدة أشهر أثار ضباط في الوحدة 8200 من سيرت متكال الجدل مجددًا برفضهم التعامل مع الوحدات الأخرى لوجود مدنيين في محيط عملية الاغتيال، أراد شارون أن يرد على هجوم إرهابي اتهمت به فتح بقصف مكتب فتح في قطاع غزة في بلدة خان يونس، كان هذا أمرًا عاديًا لكن ما أدى لرفض الضباط الأوامر كان تخطيط شارون لتعمد استهداف المكتب الساعة 11:45 ظهرًا، وهو الوقت الذي يوجد في محيطه أكبر عدد من المدنيين، وهو على خلاف العادة إذ يحصل القصف في منتصف الليل.

كان رفض الضباط للأوامر سرًا، إلى أن سربت القصة للصحافة وثار الجدل وكثرت الضجة حول استهداف المدنيين والحفاظ على الأمن، فتبنت وحدة 8200 غرفة العمليات ما سمته Grass Widow باستفزاز الفلسطينيين بطرق مختلفة؛ كأن يسير الإسرائيليون بسيارات مصفحة وعليها ميكرفونات ثم يسبوا رجال القسام وأمهاتهم ويتحدوهم ليخرجوا للقتال، أو أن يُسجن قائد حمساوي أمام أعين الجميع ليخرجوا من مخابئهم ثم يُطلق النار عليهم حاملين السلاح مما يعطي تغطية قانونية للعملية.

ومع صيف 2002 أدركوا أنه مع تزايد اغتيالاتهم ومع أنهم نجحوا في إفشال أكثر من 80٪ من العمليات، إلا أن العمليات الانتحارية كانت في ازدياد ولم تقتل همة الفلسطينيين، فجاء الدور على القياديين السياسيين ليكونوا عرضة للاغتيال كذلك، وعلى إثر هذه جاء اغتيال إبراهيم المقادمة وإسماعيل أبو شنب، ومحاولتا اغتيال فاشلتين بحق عبد العزيز الرنتيسي ومحمود الزهار، أعقبهما اغتيال الشيخ أحمد ياسين، ثم اغتيال الرنتيسي الذي عُين خلفًا له، وبعد كل هذا تعلم القادة الحمساويون الدرس فكانوا لا يتحركون إلا للضرورة القصوى وفي مناطق محدودة، وصاحب هذا الموت المفاجئ لياسر عرفات والذي تدل كل القرائن أن الإسرائيليين قتلوه، وفي نهايات 2004 انطفأت شعلة الانتفاضة ولم يعد يسمع أي صوت مقاوم.

الجبهة الأصولية

في 2000 تسلم الابن الأضعف لحافظ الأسد "بشار" السلطة في سوريا، وعلى خلاف أبيه الذي كان يميل للغرب ويحد من نشاط إيران في سوريا، فتح بشار الأبواب لإيران في سوريا، وتواصل بشكل أكبر مع حزب الله، وعقد صفقات بيع وتطوير أسلحة مع إيران، وسمح لها بوضع قدم بوجه عدوها الإقليمي إسرائيل.

وفي الوقت الذي سمعت فيه أصوات في لبنان تدعو لخروج سوريا منها نفذ عماد مغنية ورجاله عمليات اغتيال لهذه الرموز، وصلت قمتها باغتيال رفيق الحريري، وتكونت جبهة من إيران وسوريا وحزب الله وحركة الجهاد الإسلامي. أما حماس فلم يكن لها سوى تواصل قليل أراده خالد مشعل في الوقت الذي كان يرفضه الشيخ أحمد ياسين.

أسهمت هذه الجبهة في العمليات ضد إسرائيل، سواء بالمال الذي كان يأتي من إيران، وبالدعم اللوجستي للفلسطينيين والاستخباراتي ضد إسرائيل، مثل حادثة اختطاف صاحب منصب رفيع في الجيش الإسرائيلي كان قد استُدرج من قبل عميل شاباك سابق كان يعمل مع حزب الله، وهُرّب المختطف لإيران من السفارة الإيرانية في دبي.

ولم يتأخر رد الفعل الإسرائيلي إذ كان الشاباك وأمان يعملان استخباراتيًا ويجمعان معلومات وأسماء عملاء حزب الله في فلسطين ويغتالاهم واحدًا تلو الآخر، وفي قمة نجاح عمليات الشاباك وأمان كان الموساد خاملًا لا يكاد يسهم بشيء بتاتًا، ولذا أراد شارون أن يطيح بمديره ويأتي بمن يعيد نشاط هذا الجهاز الضخم ويستخدمه لمكافحة الجهاز النووي الإيراني والجبهة الناشئة، وقد وقع اختياره على صديقه القديم مير داغان الذي كان محاربًا "يحمل خنجرًا بين أسنانه".

كان داغان رجلًا يحب القتال جدًا لدرجة أنه أراد مرة أن يفجر بنكًا سويسريًا لأن الدعم الإيراني لحماس يأتي من هناك. لم يرد داغان أن تُجمع المعلومات وتُكدس على الرفوف؛ بل أراد أن يجمع الموساد المعلومات المهمة الحساسة فقط والتي سيستخدمها لينفذ العمليات على الأرض؛ ولهذا أعاد داغان بإذن من شارون تشكيل الموساد فكان أول ما عمله هو أن أجبر وحدة التجنيد بعمل اختبار بآلة كشف الكذب لكل عميل جديد خشية العملاء المزدوجين أو المخترقين، وكذلك تخلص من بعض البروتوكولات التي ظلت في الموساد

لوقت طويل وأعاقت تنفيذ عمليات الاغتيال؛ فكان مثلًا لا يأمر بتنفيذ أي عملية اغتيال إذا شكوا في اكتمال الأوراق الرسمية للعملاء وجوازات سفرهم ولو بقليل من الشك، وأراد بتخلصه من هذه البروتوكولات أن يسرع من وتيرة العمليات إذ رآها مجرد أعذار للجبناء.

من ناحية أخرى أظهر الموساد لمجلس الوزراء المصغر (الكابينت) ملخص دراسة غاية في السرية استمرت لمدة أربعة أشهر، خلص من خلالها إلى أن إيران كدولة ستتم برنامجها عاجلًا أو آجلًا، وإذا أرادت إسرائيل التخلص منه فأمامها ثلاثة خيارات، إما غزو إيران، أو الإطاحة بالنظام الإيراني، أو إقناع القيادة الإيرانية بأن ما ستخسره هو أكثر مما ستجنيه من البرنامج النووي. وبما أن الخيارين الأولين غير منطقيين، وقع الاختيار على الخيار الثالث والذي بموجبه سيتعاون الموساد مع الدول العربية التي تجاهر بمعاداتها لإسرائيل، بينما تتعامل ببرغماتية في حقيقة الأمر مع إسرائيل.

أما داغان فكان يعلم أن الاغتيالات طريقة غير مؤثرة إذا لم تصاحبها جهود سياسية ودبلوماسية وغيرها، ولكن المشكلة أن أهداف إسرائيل القيادية في الجبهة كانت تنشط في الدول العدوة، والتي لا ينشط فيها الموساد لطبيعة الخطر، ولكن داغان تخلص من هذه الفكرة – فكرة ألا ينشط الموساد في الدول التي يخشى إعدام العملاء فيها – وقرر أن يغتال الأعداء أينما كانوا، فتسلم الموساد ملف الاغتيالات في سوريا، وأمان ملف الاغتيالات في لبنان، ولكن هذه المرة تقرر أن ينفذ الاغتيال غير إسرائيليين على غير العادة؛ إذ كان الأجانب في السابق عملاء يجمعون المعلومات لا غير.

في هذا الوقت اغتيل الشيخ أحمد ياسين وأصبح خالد مشعل رجل حماس القوي، وفتح خطوط التواصل وتسلم الأموال والأدوات التي يحتاجونها لصناعة الصواريخ من الدولة الفارسية.

وفي سياق موازٍ أدرك نصر الله أن الشعور العام الإسرائيلي حساس تجاه الجنود، وأن اختطاف جندي سيقتل عزائم الإسرائيليين، لذلك نفذ حزب الله عمليات اختطاف لجنود إسرائيليين في 2003، ثم عمليات تبادل أسرى بين حزب الله وإسرائيل، وعلى هذا النهج سارت حماس في اختطافها للجندي جلعاد شاليط 2006، واختطاف جندي إسرائيلي آخر بعد شهر من قِبل الجبهة، مما دفع رئيس الوزراء الجديد إيهود أولمرت إلى دخول حرب مع حزب الله في لبنان مستهينًا بقوة الحزب، تلك الحرب التي انتهت بانسحاب الجيش الإسرائيلي أخيرًا.

كان سبب هذه الهزيمة عدم وجود المعلومات اللازمة عن إمكانيات حزبا لله وأماكن تخزين الصواريخ وغيرها، أما الضربة الأخيرة التي وُجهت لإسرائيل هي تصفية حماس للعناصر الفتحاوية في غزة والإمساك بالقطاع بيد من حديد في 2007، لتصعد قوة أخرى في وجه إسرائيل من جهة الغرب، إضافة إلى سوريا ولبنان من الشمال والشرق.

قتل ماوريس

لمدة كانت شكوك الموساد تحوم حول أمر ما يُدبّر في سوريا، وبالتجسس على إبراهيم عثمان رئيس وكالة الطاقة النووية السورية والتسلل لغرفته بأحد فنادق فيينا مطلع 7002، حصلوا على معلومات خطيرة مفصلة عن برنامج نووي سوري نجح بشار الأسد ووكيله في الجبهة محمد سليمان بإخفائه لست سنوات.

ظل الأمر طي الكتمان لسنين بسبب إنشاء محمد سليمان لقوة خاص تعتمد في التواصل على الرسائل المكتوبة المختومة، والتخلص من الأجهزة الإلكترونية تمامًا. حصل بشار على الخبرة والأدوات اللازمة لتطوير المفاعل من كوريا الشمالية عن طريق إيران، وأراد إنتاج مادة البلوتونيوم ليستخدمها في قنبلة ذرية تسمح حيازتها بجعل سوريا دولة توازن إسرائيل إقليميًا.

عندما حصل الموساد على هذه المعلومات شارك الأمر مع الجانب الأمريكي، الذي لم يكن يعلم ذلك، وكلف بوش الـCIA-NSA-PENTAGON بالتأكد من الأمر والإبقاء عليه سرًّا قدر المستطاع. وكان له ما أراد بعد مدة من بدء التحقيقات. لم يرد بوش أن يضرب دولة مسلمة ثالثة في عهده فقال لإسرائيل إنها في مواجهة سوريا لوحدها.

قرر القادة الإسرائيليون أن تضرب المنشآت النووية بأسرع ما يمكن لأنها لو تركت لنصف سنة أخرى فقط ستصل لمستوى يجعل ضربها يتسبب في تلوث إشعاعي. اعتمد القادة الإسرائيليون على علمهم بأن بشار الأسد لن يرد إذا ضربت منشآته لأن هذا سيفضح خرقه لاتفاقية منع نشر الأسلحة النووية، وبالفعل حدثت الضربة في سبتمبر 2007 وأرسلت إليه رسالة عبر أردوغان بأنه إذا لم يرد على الضربة فإن إسرائيل لن تحرجه دوليًا وعربيًا، ولن تنشر صور الضربة الجوية على الموقع. أدى نجاح هذه العملية إلى أن يخصص إيهود أولمرت للموساد ميزانية خيالية، ولم يوقف الموساد عملية جارية بعد ذلك لنقص الموارد المالية أبدًا.

لم يتوقف مجد الموساد هنا، فقد وضع عماد مغنية على خارطة المستهدفين مجددًا، وبما أنه كان حذرًا جدًا، فقد استغرق إيجاد مكانه وقتًا طويلًا، ولكن في النهاية وجد الموساد بسبب التفوق التكنولوجي ثغرة في أجهزة الاتصالات الإيرانية لجهات عليا علموا من خلالها أنه انتقل لدمشق، فبدأ الموساد عملية خطيرة في دمشق وبمساعدة الأمريكان وجدوا مغنية وتحركاته في منازل المخابرات السورية الآمنة، وبعد شهور من التعقب وزرع متفجرات بسيارته اغتالوه، لكن هذا لم يُرضِ الموساد فبعدها بشهور اغتيل سليمان كذلك بقنصه من الشاطئ وهو في منزل شاطئي في مدينة طرطوس.

أما اغتيال مغنية فقد أثبت نجاحه وأنه يساوي قادة حزب الله كلهم؛ إذ إن جميع محاولات الانتقام له لم تفلح، إلا واحدة وأفشلت غيرها من المخططات. في نفس الوقت أعد داغان مشروع عرقلة البرنامج النووي الإيراني بإنزال عقوبات اقتصادية أمريكية على إيران ودعم الأقليات لقلب نظام الحكم واغتيال الشخصيات المهمة في البرنامج النووي، فنفذوا اغتيالين للعالمين الإيرانيين أردشير حسن بور في 7002 ومسعود علي محمدي في 0102، وأدرك القادة الإيرانيون أن الموساد يشتغل في بلدهم، فطوقوا منازل العلماء النوويين بحراسة مشددة حولت حياة أسرهم لجحيم وأرسلوا معهم حراسات شخصية وسيارات خاصة أينما حلوا وارتحلوا.

نجاح تكتيكي مذهل، فشل استراتيجي كارثي

ظل الموساد مدة يراقب تحركات محمود المبحوح، الذي كان عضوًا من أعضاء حماس الفاعلين في الخارج. كان المبحوح يسافر للخارج كثيرًا وخاصة دبي وسوريا، ويعقد صفقات أسلحة مع الحرس الثوري الإيراني، ثم تُنقل الأسلحة مرورًا بالسودان في 2008 و2009، ومع أن منصب الرجل لم يكن يستحق المخاطرة بسمعة إسرائيل من أجله، إلا أنه تقرر اغتياله في اجتماع في 2009، كانت أولى محاولات اغتياله في مارس 2009، عندما كان ينقل الأسلحة بحرًا من السودان إلى غزة.

ومع أن القوات الجوية الإسرائيلية ضربت الحمولة إلا أنه تبين أن المبحوح سلك طريقًا آخر لغزة، ثم كانت محاولة اغتيال ثانية بالسم أثناء وجوده في دبي في نوفمبر؛ إذ دُس السم له في طعام كان يُحضر له في غرفة فندقه، لم يتجاوز أثر السم إلى الإغماء، فلم يشك

أنها محاولة اغتيال، ولما رجع إلى دمشق أخبره الطبيب بأن السبب مجرد نقص في كريات الدم البيضاء، ثم كانت محاولة الاغتيال الثالثة في يناير 2010، والتي نجحت، وبُثت تحركات رجال الموساد على الشاشات بعد عرض شرطة دبي للتسجيلات في الفندق الذي حصل فيه الاغتيال.

مع أن الاغتيال أثار موجة استنكار عالمية إلا أنه أدى إلى احتفالات من الشعب الإسرائيلي دعمًا للموساد. ولكن نتنياهو الذي شعر بالإهانة إثر موجة الانتقادات العالمية إضافة إلى عدم توقف البرنامج النووي الإيراني حتى مع العقوبات الاقتصادية، قرر بجانب وزير الدفاع إيهود باراك أن يخوضوا حربًا حقيقة ضد إيران.

كانت القيادة الإسرائيلية كلها ضد هذه الحركة التي رأوها تهورًا وتقديمًا للمصلحة الشخصية المتمثلة في الانتخابات القادمة على مصلحة البلد، إذ إن أي حرب مع إيران ستوحد الإيرانيين جميعًا وراء الخميني، وستجعل إيران تتذرع بالحرب لتحصل على السلاح النووي دفاعًا عن النفس. في خضم هذا الصراع الإسرائيلي كانت الاغتيالات ضد العلماء النوويين الإيرانيين جارية على قدم وساق، ولكن لأن إيران ليست دولة مفتوحة للموساد مثل الإمارات، فإن الموساد كان ينفذ كل هذه الاغتيالات عن طريق الأكراد والبلوش والأذربيجانيين والأقليات المعارضة لحكم آيات الله.

ولتعطيل عجلة البرنامج النووي بسرعة، ركزوا على اغتيال الشخصيات المهمة في البرنامج إعلاميًا، حتى لو لم يكونوا على قمة هرم العلماء والمدراء، فإن اغتيال شخصيات مشهورة سيجعل الخوف يدب في قلوب العلماء الآخرين، في نفس الوقت كان الأمريكان يراقبون بتوجس تحركات الجيش الإسرائيلي ومناوراته خوفًا من حرب ضد إيران قد تتسبب في اضطراب في أسعار النفط وإضطرابات أخرى في الشرق الأوسط وتقلل فرص أوباما في انتخابات 201، فأرسل لنتنياهو رسالة عبر عضوة بمجلس الشيوخ الأمريكي يحذر نتنياهو أن أي ضغط على الإدارة الأمريكية سيسبب إجراءات دراماتيكية، وعلى الأغلب لن تكون الإجراءات التي يرجوها نتنياهو.

في نفس الوقت فتح الأمريكان باب المفاوضات مع الإيرانيين سرًا في مسقط عاصمة عمان، وتوصلوا إلى اتفاق بأن يوقف الإيرانيون البرنامج النووي ويكون عرضة للمراقبة الدقيقة، وفي نفس الوقت أرسلت العضوة بمجلس الشيوخ أن عن طريق تامر باردو - مدير

الموساد الجديد - بأن يوصل أمرًا إلى نتنياهو بأن يوقف برنامج الاغتيالات فورًا إذ لا يجب أن يحصل أي اغتيال في خضم المحادثات. وكان الاتفاق النووي هو الضربة القاضية بالنسبة لخطط الحرب الجوية المفتوحة لنتنياهو.

لعقود ظلت قيادة المجمعات الاستخباراتية الإسرائيلية تؤمن بأن الاغتيالات والعمليات الخفية قد تشكل بديلًا للدبلوماسية الحقيقية، ستقضي على الخطر الوجودي لدولة إسرائيل وستكون استراتيجية ناجحة، ولكن بعد صراع طويل أدرك الكثير منهم أن برنامج الاغتيالات لا يشكل أكثر من نجاح تكتيكي وفشل استراتيجي مدمر، وأن الحل الوحيد لحل الصراع هو دولتان منقسمتان، دولة فلسطينية ودولة إسرائيلية.



هدية العدد ٢٤ من مجلة كَلِمَةُ حَقّ يوليو ٢٠١٩